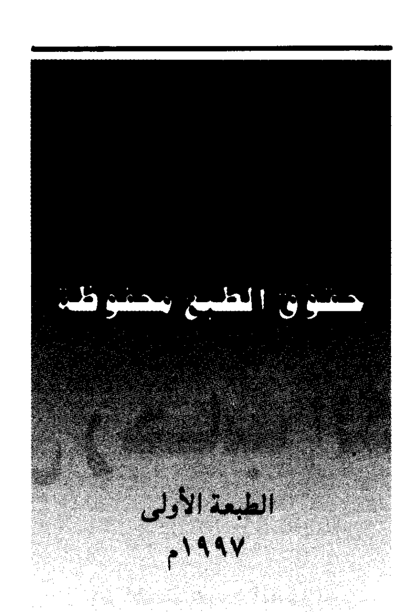
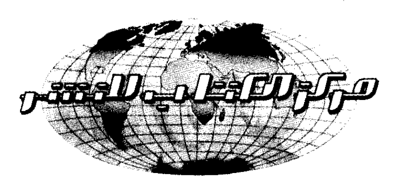
الشيخ الشعراوى

فى رحاب الكعبة

إبراهيم عبد العزيز

مركز الكتاب للنشر





مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٠٩٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

الإهــــداء

إلى ابنتى زينب راجياً الله أن يكون لها
نصيب وافر من سميتها الطاهرة فى رحاب
كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

إبراهيـم عبـد العـزيـز

مقدمة

حينما سألت فضيلة الشيخ الشعراوى إمام أئمة عصره عن نظرته إلى أعدائه، قال: أحبابى وأعدائى كلاهما مستفيد منى. فأما أحبابى فمستفيدون منى الهدى. وأما أعدائى فمستفيدون ممن يؤجرونهم لمهاجمتى. وكلما ازداد الهجوم، ازداد حظى من ميراث النبوة. أليس العلماء ورثة الأنبياء فى تبليغ رسالتهم وفيما يلاقون من أذى وعداء؟

وهكذا نجد فضيلة الشيخ الشعراوى كما حظى بالحب فقد حظى بالعداء. والمحبوبية رزق وفضل من الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى إذا أحب عبدًا طلب من ملائكته أن يحبوه وأن يضعوا له القبول فى الأرض. أما العداء فهو من نصيب الناجحين، كالشجرة المثمرة التى يلقى عليها الطوب والحجارة. وأعداء النجاح هم دائمًا الفاشلون. وكذلك أعداء المصلحين هم دائمًا المفسدون. والرسل والأنبياء هم الذين يرسلهم الله على موعد مع بلوغ الفساد غايته ومداه فى الأرض؛ لكى يقيموا المعوج، على

منهج الله.

وما أسهل محاربة المصلحين بالافتراءات والاتهامات بالكذب والسحر والجنون، وغيرها من الافتراءات التى يعلم أصحابها أنها خاوية من الحقيقة. وفى عصرنا تأخذ الاتهامات للناجحين والمصلحين والدعاة أشكالاً متقدمة تتناسب وتقدم العصر وأدواته. وكلها تصب فى باب الأكاذيب والتلفيقات، على نسق ﴿**لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ..**﴾ [النساء : ٤٣] دون إكمال بقية الآية، لتأخذ مضمونها الصحيح. وعلى هذا النسق يقرءون ما يقوله داعية كالشيخ الشعراوى قراءة تقوم على سوء النية والقصد بتلبيس الكلام بغير ما يعنيه واجتزاء ما يخدم الافتراءات؛ لهدم الرجل وقتله أدبيا ومعنويا. فقد زعموا على سبيل المثال أن الرجل قال: إنه سجد لله شاكرًا بعد هزيمة ٦٧ على الضحايا الذين ذهبوا. وما أبعد ذلك عن الحقيقة إذا عدنا إلى حديث الشعراوى الذى قال فيه: إنه سجد لله شاكرًا بعد هزيمة ٦٧؛ لأننا هزمنا ونحن فى أحضان الشيوعيين الذين كنا نستعين بهم فى قواتنا المسلحة. وعندما تخلصنا منهم واستغنينا عنهم، واعتمدنا على الله أكثر، انتصرنا فى العاشر من رمضان، ونحن فى أحضان الله، بينما انهزمنا حنيما كنا فى أحضان الملحدين.

لقد اجتزءوا من كلام الشيخ ما يخدم التهمة ويؤكد الافتراء.

وجاء سفر الشيخ الشعراوى للعلاج فى الخارج ليُتَّهمَ بأنه سلم نفسه للعلاج على أيدى غير المسلمين، وأوضح الرجل لذوى الفهم القاصر موقفه، فقال:

إن الناس جميعًا مسلمهم وغير مسلمهم وكافرهم هم عيال الله، استدعاهم إلى الوجود، وتكفَّلَ برزقهم من أسباب الله فى أرض الله. إذا ما تفاعلوا معها، تفاعلت لهم، وأعطتهم من خيرها، وهذا هو عطاء الربوبية للناس جميعًا؛ لقوله تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا** ﴾ [البقرة: ١٦٨] وليس لمؤمن فى مسألة التفوق ميزة على الكافر؛ لأن الكافر إذا أخذ بأسباب التقدم انفعلت له الأسباب. والمؤمن إذا لم ينفعل بها يظل متخلفًا. ومن العجيب أن تفوق الكافر وتقدمه يعود إلينا كمستهلكين ومستفيدين، وكأنهم مسخرون لخدمتنا، وكنا نأمل أن يكون التقدم لنا نفيض به على غيرنا، ولكننا مستفيدون فى الحالتين. ولكن التقدم فى بعض الأحيان قد يكون نتيجة قصور فى الإمكانيات لا قصور فى المواهب والقدرات الإنسانية. ولذلك حينما قرر الأطباء سفرى للعلاج، وتَقرَّرَ أن يكون المشرف على علاجى طبيبًا مسيحيا، والطبيب المعالج يهوديا، ورغم أنه خبير عالمى فى جراحة المناظير، وأجرى أكثر من ألف عملية مرارة، فإنه لم يستطع، وتسلَّمَ المسئولية منه طبيب

مسلم من بلدى يعمل فى إنجلترا، واستطاع وهو المتخصص فى الجراحة العامة أن يستأصل مرارتى بالجراحة العادية.

وهكذا شاءت إرادة الله أن يكون الطبيب الذى أزال أسباب الألم بأمر من الله هو طبيب مسلم ومصرى، لا يهم المكان أرضًا هنا أو هناك، فكلها أرض الله. ولا غضاضة إن كان قد قام بالعملية يهودى أو مسيحى أو مسلم؛ لأننا جميعا متصلون فى عقائدنا برب واحد، فنحن جميعًا كأهل ديانات متصلون بالله، ويجب أن ننسى خلافاتنا فى الفروع؛ لنتحد فى مواجهة الملاحدة، حتى لا يأخذوا من خلافاتنا واختلافاتنا حجة علينا بصواب كفرهم.

وأخذوا على الشيخ الشعراوى أنه أفتى بترك العلاج؛ لأن المريض على موعد مع الله، والعلاج لا يقدم ولا يؤخر. والحقيقة أن الشيخ الشعراوى لم يدعُ إلى ترك العلاج؛ لأنه يعلم - وقد قال بذلك فعلاً - أن الرسول نفسه قد أخذ بالأسباب حين أصيب بالحمى، وراح يخفض من حرارتها بالماء، والرسول ﷺ نفسه هو الذى قال: لكل داء دواء.

ويضيف فضيلته: فكيف أدعو إلى ترك الأسباب التى أمرنا الله ورسوله بأن نأخذ بها؟!

ولسنا هنا فى معرض الدفاع عن الشيخ الشعراوى؛ لأن الله ـ سبحانه ـ متكفل بالدفاع عن الذين آمنوا. أولئك الذين هداهم الله لنوره، وأفاض عليهم من علمه وبيانه. ولن تنتهى الاتهامات واجتزاء المعانى الموحية بالاتهام من أقوال الشيخ،فالحرب مستمرة، وهو ما يعتبره الشيخ الشعراوى شرفًا ووسامًا على صدره ودليلاً على نجاحه وبلوغ رسالته ودعوته إلى الله.

* * *

وحينما أعود إلى أوراقى القديمة الخاصة برسائلى إلى أصدقائى لم أجد أسعد من يوم لقائى مع فضيلة الشيخ الشعراوى، فقد كتبت فى تلك الأوراق إلى صديقى «محمد الحصرى»، أقول:

الحمد لله.. هذا أسعد يوم فى حياتى.. لقد التقيت بإمام عصره الشيخ الشعراوى.

لقد كان اللقاء به أمنية حياتى، حتى قبل أن أكون صحفيا، حينما كنت بالجامعة، وبعثت برسالة إلى الإمام الشعراوى أعبر له فيها عن حبى وتقديرى وإعجابى بأسلوبه وطريقته فى تفسير القرآن الكريم.. وإن لم يعترف هو أنه يفسر القرآن مكتفيًا بأن ما يقوله ما هو إلا خواطر يفيض الله بها عليه ساعة أن يدلى

لجمهور المسلمين بأحاديثه مما يلهمه الله به من فيوضات فكرية إيمانية تجعل المستمع إليه يعيش فى عالم روحى مع غيره من المستمعين الذين يصيحون جميعًا فى وقت واحد: «الله. . الله» معبرين عن إعجاب أسطورى، لا أعتقد أن عصرنا قد شهد مثله لرجل دين منذ عهد الأستاذ الإمام محمد عبده رائد التجديد فى الفكر الإسلامى خلال القرن الرابع عشر الهجرى، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يبعث لأمة الإسلام على رأس كل مائة سنة من يجدد إيمانها، ويبعث فيها روح الإسلام قويا نشيطًا من جديد.

ولعل الشعراوى هو ذلك الرجل الداعية المجدد على رأس المائة الخامسة عشرة لهذا القرن الهجرى الذى نعيشه.

وما أسعدنا أننا نعيش فى عصر الإمام الشعراوى، لدرجة أننى فى رسالتى إليه وأنا ما زالت طالبًا بعد فى المرحلة الجامعية قلت له: إننى أدعو الله ـ تعالى ـ أن يأخذ من أعمارنا ليطيل فى عمرك، حتى تنتهى من خواطرك الإيمانية حول سور القرآن الكريم وآياته.

وتلك هى أمنية الشيخ نفسه أن يبارك الله ـ تعالى ـ فى عمره، حتى يصل بخواطره إلى آخر آية من سورة «الناس»، ذلك لأن الشيخ الإمام يأخذ وقتًا كثيرًا حول الآية الواحدة، مما قد لا

يسعفه العمر لاستيفاء خواطره حول القرآن الكريم كله.

ولم أكن وحدى الذى ساورته هذه المخاوف، وإنما مسلمون آخرون بعثوا إليه بخطاباتهم التى يبدون فيها هذه الملاحظة. وقد رد عليهم الشيخ الشعراوى خلال إحدى حلقات خواطره المذاعة فى التليفزيون، وطمأنهم أن تكرار بعض الآيات والمعانى لحكمة مقصودة فى كتاب الله - تعالى - سيجعله يمر عليها سريعًا اعتمادًا على شرحه لها فى آيات سابقة مما يختصر الوقت؛ فنحن حريصون على استيفاء خواطر الشيخ الشعراوى حول القرآن الكريم كله لأنها ستكون ثروة تراثية للإسلام وللمسلمين على مدى العصور والأجيال.

ولا شك أن مقابلته هى أمل عظيم وأمنية كبرى، وإن كانت خواطره المذاعة حول القرآن الكريم تعوض محبيه عن مقابلته. وقد اقتربت من تحقيق أمنيتى فى مقابلة الشيخ الإمام بعد أن خطوت أولى خطواتى فى شارع الصحافة.. كان ذلك عندما كنت بمجلة «المصور».

وقد شجعنى وأطمعنى فى التعجيل بالسعى لمقابلة الإمام هو أننى بدأت حياتى الصحفية على مستوى طيب عندما أجريت أول حوار صحفى مع شيخ الكُتاب «توفيق الحكيم»، وكان ذلك بعد

حوالى ثلاثة أشهر فقط من عملى بمهنة البحث عن المتاعب، فقلت لنفسى: إذا كنت قد قابلت الحكيم شيخ الكُتاب، فهل يصعب مقابلة شيخ شيوخ الإسلام؟ فلأحاول.

ولكنى أعترف ـ لقلة الخبرة آنذاك ـ أن الأسلوب الذى اتبعته من أجل إتمام هذه المقابلة لم يكن حكيمًا، فقد كتبت رسالة إلى الشيخ أقول فيها: إن شيخ الكُتاب توفيق الحكيم قد قابلنى، وسمح لى بإجراء حوار معه رغم أننى ما زلت فى بداية حياتى الصحفية، وأرجو من فضيلتكم مقابلتى وإجراء حوار معك.

وكان توفيق الحكيم قد بدأ نشر أحاديثه الشهيرة مع الله تعالى، والتى أثارت ضجة كبرى قادها الشيخ الشعراوى نفسه، واتهم فيها الحكيم بالضلال؛ لأنه لا يتحدث مع الله ـ تعالى ـ إلا أنبياء الله ورسله، فكيف يبيح الحكيم لنفسه أن يتصور أو يتخيل حوارًا أو حديثًا مع الله. ورغم هذه الأزمة القائمة بين القطبين الكبيرين فإننى لم أحاول تغيير صيغة خطابى إلى الإمام الشعراوى. وفى الاستراحة بين الحلقتين اللتين كان يسجلهما الشيخ بمسجد سيدنا الحسين ـ رضى الله تعالى عنه وأرضاه ـ سلمته الرسالة التى سلمها بدوره إلى أحد مريديه المحبين المقربين، وكما علمت بعد ذلك إن هذا الرجل كان يعمل بوزارة الأوقاف حينما كان الشعراوى وزيرًا، فلما ترك الوزارة، ترك هذا

الرجل أيضًا منصبه بالوزارة، وآثر ملازمة الشيخ الشعراوى حبا وتقديرًا.

وكانت نتيجة الرسالة معروفة مسبقًا، فقد قلت للشيخ الشعراوى بصريح العبارة إننى صديق للحكيم الذى اتهمته أنت يا شيخنا بالضلال، والمسلم الفطن هو الذى يتعلم دائمًا من أخطائه، فما كان يجب أن أربط قط بين مقابلتى لشخص بشخص آخر حتى لو بدا لى أن العلاقة بينهما طيبة، فلا أحد يدرى ما يمكن أن يكون بينهما خلف الستار، فما بالك والخصومة معلنة على رؤوس الأشهاد؟!!

ومرت شهور وراء شهور، وما زالت تراودنى فكرة المحاولة من جديد لمقابلة الشيخ الشعراوى، ولكننى كنت أقول لنفسى: لقد وضعنى الشيخ فى القائمة السوداء التى تضم المغضوب عليهم، ولكننى كنت أقول أيضًا: ولكن الشيخ والكاتب تَصالَحا، وقام الشيخ الشعراوى بزيارة توفيق الحكيم أثناء مرضه فى المستشفى، وصلى عنده داعيًا له بالشفاء، وأهداه سجادة للصلاة، وقالب طوب للتيمم.

وكان لابد من دافع قوى لمقابلة الشيخ، وقد جاء هذا الدافع بسبب من المسبب الأعلى هيأه لى بأفضل ما يكون التهيىء،

فسبحان الذى يجعل لكل شىء سببًا؛ حتى يمارس الإنسان الحركة والفعل، ولا يركن إلى الدعة والكسل والتوكل. وهذا ما تعلمته من الإمام الشعراوى فى خواطره الإيمانية، حيث قال: أى قوة فى عصا موسى تجعل البحر يتحول إلى يابس يعبر عليه كليم الله وقومه؛ نجاة من فرعون وقومه، ثم يضرب بعصاه مرة أخرى، فيعود البحر كما كان ليغرق فرعون وقومه؟! وأى قوة لمريم وهى تعانى آلام الوضع لتهز النخلة لتساقط منها عليها رطبًا جنيًّا؟! وأى قوة فى قدمى إسماعيل الطفل الوليد ليضرب بهما الأرض؛ لتتفجر مياه زمزم من تحتهما؛ ليشرب وتشرب أمه، ويشرب المسلمون إلى يوم القيامة؟!

إن القضية هنا هى أن نمارس الأسباب فى كون الله، وفى النهاية كما يقول الحق: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فأنت ترمى يا رسول الله، وترمون يا جند الله، ولكن الله هو الذى أوصل سهامكم إلى مرماها وأهدافها. المهم أن يتحرك الإنسان ولا يتجمد، لا يجلس كالرجل الذى جلس بجوار الحائط يدعو الله أن يرزقه معتمدًا على قول الحق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فنهره سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ لقصور فهمه وتواكله؛ لأن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وإنما على الإنسان

أن يسعى فى أرض الله ملتمسًا رزق الله، كالطير تخرج من أعشاشها خماصًا ببطون خاوية، فتعود بعد سعيها بطانًا وقد شبعت بحمد الله.

وحمدتُ الله أن الأستاذ «يحيى حقى» - رحمه اللّه - قد اختار الشيخ الشعراوى من بين من يهديهم أحد مؤلفاته، وكان يحملنى دائمًا إهداءاته من كتبه إلى من يريد إهداءهم، وكان كتابه الذى وقع عليه اختياره ليهديه إلى الشيخ هو «من فيض الكريم»، وهو عبارة عن مقالات جمعت تحت هذا العنوان الجميل. ونظرًا لضعف بصر يحيى حقى كان يملينى إهداءاته، ثم يوقع عليها. وكان إهداؤه إلى الشيخ الشعراوى قوله: «إلى الشيخ الشعراوى: نفع الله به الأمة».

وكان ذلك أسعد الهدايا والإهداءات، فقد أعطانى صاحب قنديل أم هاشم مفتاحًا فى ضوء قنديله؛ لأفتح به الطريق إلى الإمام الشعراوى. وفرغت نفسى تمامًا من أى ارتباطات فى هذا اليوم الموعود للذهاب إلى بيت الشيخ فى «الباب الأخضر» فى رحاب الإمام الحسين، ووصلت إلى هناك حوالى الساعة الحادية عشرة ضباح يوم ثلاثاء من مطالع أيام جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ. وفى مدخل الطريق إلى بيت الشيخ وجدت أحد المُكلَّفين بحراسته جالسًا، رغم أن الشيخ نفسه لا يرغب فى أى نوع من الحراسة،

حتى إنه حينما كان وزيرًا، وخرج من بيته ليؤدى الصلاة بالمسجد، تبعه حارسه الخاص، فأوقفه الشيخ الشعراوى ليقول له: لماذا تأتى خلفى؟! هل ستصلى معى؟! وكما يُروى فقد قال الحارس: جئت وراءك لحراستك. فقال له الشعراوى: وأنت من يحرسك يا بنى؟! إن الله يحرسنا جميعًا.

ويبدو أن وجود حراس على بيت الشيخ ما هو إلا نوع من السكرتارية التى تنظم مقابلاته، أو تحمل إليه الرسائل التى تصله، وإلا لو تركت الأمور هكذا، فإن وقت الشيخ لن يسعفه لمقابلة كل من يريدون لقاءه. وصبيحة أحد الأيام رأيت عددًا كبيرًا من الناس قد تجمعوا أمام بيت الشيخ فى الحسين يريدون مقابلته، فكان الحراس يسمحون لواحد واحد بالمثول بين يدى الشيخ ليبثه سؤاله أو مسألته، وإن كان وجود الحراسة فى حد ذاتها أمرًا ضروريا - كنوع من الأخذ بالأسباب - على رجل بأهمية الشيخ الشعراوى، الذى يحظى بنصيب وافر من الأعداء العلمانيين والشيوعيين الذين لم يكن غريبًا أن تخرج صحيفتهم لسان حال حزبهم ذات صباح لتقول فى أحد تحقيقاتها الصحفية: إن الشيخ الشعراوى يسيطر على التليفزيون، ويساعد بأحاديثه على تطرف الشباب. وفى جرأة تحُسَد عليها الصحيفة الحمراء طلبت من وزير الإعلام التقليل من الوقت المخصص للبرامج الدينية فى الإذاعة

والتليفزيون؛ بحجة أن المساحة المتاحة لهذه النوعية من البرامج تشجع على التطرف! ذلك فى الوقت الذى يشكو فيه الكثيرون من قلة تلك البرامج، وأن نقصها يتيح الفرصة للفكر المتطرف أن يسود. ولم يكن غريبًا أيضًا أن يكتب أحد كبار الكتاب الصحفيين المشهور بنفاقه وحرق البخور لذوى السلطة والسلطان، فيقول فى أحد كتبه على الشيخ الشعراوى دون أن يجرؤ على تسميته: إنه أحد رجال الدين، والذى أصبحت له شعبية كبيرة وصار مثل زعيم شعبى، ورغم أنه معتدل ـ كما يقول ـ فإنه ساهم بأحاديثه، سواء عن قصد أوغير قصد فى شحن الجماهير والمساعدة على التوتر الذى ساد البلاد فى أواخر عهد السادات، وانتهى بالمأساة الدامية.

ولم يكن غريبًا أيضًا ولا مستغربًا أن إسرائيل ـ ممثلة فى حكومة مناحم بيجين ـ قد طلبت من مصر ـ ممثلة فى حكومة السادات ـ أن توقف أحاديث الشعراوى؛ لأنه يتناول اليهود فيها بصورة لا تساعد على تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل. بل إن وزير التعليم الإسرائيلى فى حكومة بيجين طلب حذف الآيات القرآنية التى تندد باليهود كمعتدين غضب الله عليهم ولعنهم كقتلة لأنبيائه ومحرفين لكتابه.

فلا غرو أن تكون على الشعراوى حراسة؛ فحياة الرجل

مستهدفة من كل أعداء الإسلام.

ولما سألنى الحارس عما أريد، أخبرته أن معى رسالة إلى الشيخ الشعراوى من الأستاذ يحيى حقى.

فسألنى عمن يكون الأستاذ حقى. ولم أتعجب كثيرًا، فعادة ما يكون مثل هؤلاء الحراس من عديمى الثقافة، بل بالكاد ممن يفكون الخط، وغالبًا ما يكونون من قوات الأمن المركزى، لذلك فإن بطشهم حين يؤمرون يكون شديدًا. وحين يُستغضبون يكون بطشهم أشد، والدليل واضح فى أحداث الأمن المركزى الشهيرة. ولأن الشىء بالشىء يُذكَر فقد شاهدت عند الشيخ الشعراوى فى أحد لقاءاتى به بعضًا من ضباط الشرطة الذين جاءوا إليه حامدين شاكرين الله على ما كرهوه يوم نقلهم من مواقعهم القيادية فى قوات الأمن المركزى قبل أن تقوم قيامتهم المدمرة، وذهبوا يومها إلى الشيخ الشعراوى غاضبين من نقلهم من أماكن قريبة إلى أخرى ظنوها بعيدة، فقام الشيخ بتهدئتهم بالآية الكريمة ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢١٦]، حتى وقعت تلك الأحداث وهم بعيدون عنها فى مواقعهم الجديدة،فحمدوا الله؛ لأنهم لو كانوا فى مواقعهم الأولى لنالهم العقاب الذى لم يكن أحد يعرف أبعاده أو بدايته أو منتهاه، لذا

عادوا للقاء الشيخ الشعراوى يشكرونه على ما ذكرهم به من كتاب الله يوم جاءوا إليه مغضبين فيما ظنوه نقمة، فإذا بالأحداث ووقائعها تثبت لهم أنها نعمة.

وما أجمل الرضا بقضاء الله وقدره كما يقول الشيخ الشعراوى، فإن من يرضى بقضاء الله وقدره يرفع الله عنه قضاءه، ومن لم يرضَ ظل القضاء عليه لا يُرفَع حتى يرضى.

وذكرت للحارس أن يحيى حقى أديب كاتب يؤلف قصصًا.

فسألنى عن الرسالة التى أريد تسليمها للشيخ، فقلت له: إنها عبارة عن كتاب.

فطلب منى حارس آخر - يبدو أنه قائد قوة الحراسة - أن أعطيه الكتاب، وأنتظِر حتى يأتى ويسمح لى الشيخ بمقابلته، فبدا على وجهى خيبة الأمل، فأخرجت الكتاب من الحقيبة بيد واهنة ضعيفة، وأعطيته للحارس الذى كان رجلاً طيبًا، فقال لصاحبه: دعه يأتى معى.

ومضيت معه وأنا أكاد أطير من الفرح، فها أنا ذا قاب قوسين أو أدنى من لقاء الشيخ الإمام، ولا أكاد أصدق نفسى أننى خرجت من عنق الزجاجة.

وفى الطريق إلى شقته أعاد إلىَّ الحارس الكتاب؛ لأسلمه للشيخ الشعراوى بنفسى. ووصلنا إلى الباب، فطرقه الحارس، وترقبته، وفتح لنا مَنْ فتح ليقول لى الحارس بعد حديثه معه إن علينا أن ننتظر قليلاً؛ لأن الشيخ يتحدث فى التليفون. حتى إذا انتهى رأينا الشيخ مقبلاً علينا بنفسه، فسلمه الحارس بضعة خطابات من أصحاب المسألة.

وقال الحارس للشيخ مشيرًا إلىَّ: إن الأستاذ يريد أن يسلمك رسالة.

فسلمته كتاب يحيى حقى «من فيض الكريم» ملفوفًا بورق مسطر مشبوكًا بدبوس إبرة، فقال لى: تفضل.

وسألنى ممن تكون الرسالة، فأخبرته أنه كتاب هدية من الأستاذ يحيى حقى، فسألنى نفس سؤال حارسه: ومن يكون يحيى حقى؟

فقلت له: إنه أديب ناقد قصاص.

فسألنى: وما علاقتك به؟

فقلت: إنه أستاذ وصديق.

فسألنى بصيغة الجمع: كيف أحوالكم؟

فقلت: الحمد لله.

وراح الشيخ يردد: الحمد لله.. لك الحمد يا رب.

وأجَّلَ قليلاً النظر فى كتاب يحيى حقى، حتى ينتهى من فض الخطابات المرسلة إليه؛ فلعل بها شيئًا يستحق العجلة أو النجدة، وبين كل رسالة يفتحها وأخرى كان يحمد الله ويصلى على النبى ﷺ. ورغم رهبة الموقف وجلاله وأنا أجلس بحضرة هذا الرجل المهيب لأول مرة، فإننى لاحظت أن حارسًا آخر بعد أن مضى الأول الذى أوصلنى، لا يزال واقفًا بالباب ينتظر تعليمات الشيخ، ولاحظت غضبه بعد أن انتهى من قراءة الرسائل التى بين يديه وسلمها لهذا الحارس وهو يقول له فى ضيق بدا عليه: «كلهم عايزين معونات، حوِّلهم للشئون الاجتماعية، أنا حوِّلت كل فلوسى للشئون الاجتماعية، يعملوا عنهم بحث ويدُّوهم المعونة اللى يستحقوها».

فالشعراوى يغضب ويحزن كلما وصلت إليه رسائل يطلب فيها أصحابها منه المعونات المادية، وكان يتمنى لو سألوه أسئلة دينية أو استفسروا منه عن قضية من قضايا الإسلام، ولكنهم يسألون المعونات. وما أكثر ما تأتيه المسألة من أرباب النصب والاستغفال. ويقول الشيخ: إن الصادق من أصحاب الحاجة

والمسألة يجد حاجته تُقضَى فى وقتها، فيلبيها لساعتها؛ لأنها تكون عنده. أما أصحاب النوايا الخبيثة، فإن الله يعطى الشيخ الفطنة لصدهم وكشفهم.

وقال الشيخ كم من واحد أتاه، فأمات أمه وأباه أكثر من مرة ليطلب نفقات الجنازة، فيطلب الشيخ من أحد أعوانه أن يذهب معه للتكفل بنفقات الجنازة المزعومة، وعندما يشعر أن أمره قد انكشف، فإنه يخفى خزيه بأن تسابق قدماه الريح ما إن يخرج من رحاب منزل الشيخ.

فالشيخ الشعراوى لا يبلع الطعم أبدًا. وهكذا فالمؤمن كيِّس فَطِن.. يرى بنور الله، وهكذا الشيخ الشعراوى الذى عندما انتهى من رسائله التى أغضبته، اتجه نحوى يسألنى عن حالى.

فقلت له: الحمد لله الذى أتاح لى هذه الفرصة للقائك الذى أنتظره منذ زمن طويل.

وراح الشيخ يكشف عن كتاب يحيى حقى الذى أهداه إليه، وما إن قرأ العنوان «من فيض الكريم» حتى قال: ما شاء الله.. اللهم صلِّ على النبى. وأخذ يتصفح عناوين الكتاب، مثل:

- لماذا أنا سعيد؟ لأنى ولدت مسلمًا.

ـ فى مولد الرسول.

ـ فى سماء المدينة. . . الخ.

وكلما قرأ الشيخ أو صافحت عيناه عنوانًا اهتز فرحًا وهو يقول:

ما شاء الله. اللهم صلِّ على النبى.

وبعد أن انتهى اقترحت عليه قائلاً فى صيغة تساؤل: هل تود فضيلتكم الاتصال بالأستاذ يحيى حقى؟

فطلب رقم تليفونه، فأمليته عليه، وسجله فى نوتة صغيرة يحتفظ بها فى جيبه، وهممت أن أعيد على مسامعه الرقم مرة ثانية ليطلب يحيى حقى، فإذا به قد حفظه وطلبه دون حاجة إلى نظر فى نوتة أو إملاء منى. وهنا تذكرت قول الله: ﴿ **واتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فعلى قدر التقوى يكون قدر العلم من الله للمتقين؛ لأن علم الله ونور نور الله لا يُهدَى لعاصٍ، فالعصيان يطفئ نور القلب، ويعمى البصيرة، ويبلد ملكات الفهم والحفظ والاستيعاب.

والشيخ الشعراوى من المتقين، بل من الواصلين المتصلين. انظر إليه وهو يتحدث عن أحداث ومواقف وقعت فى غزوة

الأحزاب، فإذا بها تتمثل له كما وقعت على حقيقتها، بل إن بعض شهودها يأتونه ليصححوا له بعض الوقائع التى ذكرها، لا يهم المكذبون، فهم لا شك مترقبون متحفزون، ولكن المهم أن الشيخ صادق مع نفسه. ولعالم الملكوت مع الخالق أسرار لا يدركها إلا من آتاه الله علمًا، وفتح له خزائن ملكوته. وتلك أمور غيبية لا تخضع لقوانين البشر. وفى قصة «موسى» و«الخضر» أنصع برهان وأبلغ دليل، فموسى يرى بقوانين الدنيا الواقعة، أما الخضر فقد كان يرى بقوانين الله المستقبلية مما يصعب فهمه حتى على كليم اللَّه موسى أحد الرسل أولى العزم، ولكن الله قد أعطى أحد عباده الصالحين المتقين من لدنه علمًا.

وما أحسب الشيخ الشعراوى إلا واحدًا من أولئك الذين اصطفاهم الله بعلمه، فهو يقول خواطره حول الآية الواحدة بل الكلمة الواحدة من كلام الله موضحًا موقعها النحوى وصلتها بما قبلها وما بعدها، ويربط بينها وبين ما شابهها أو ما يتصل بها فى كل آيات القرآن الكريم، وكأنه يقرأ من كتاب مفتوح، متحدثًا فى العلم والفلسفة والشعر والتاريخ، وكل فنون الثقافة والمعرفة بفهم عالٍ واستيعاب واعٍ، ومعرفة بكتاب الله وسنته، لا يؤتاها إلا من أحبه الله.

وحينما أردت أن يكتب فضيلة الشيخ مقدمة لكتابى «رمضان

الذى لا نعرفه»، اعتذر، وقبلت اعتذاره راضيًا؛ لأن ذلك سوف يفتح عليه أبوابًا لا تنتهى، ولكن ما إن صافحت عيناه الإهداء: «إلى رسول الإنسانية» حتى نبهنى بسرعة إلى الخطأ الذى وقعت فيه قائلاً: إنه ليس رسول الإنسانية؛ فالإنسانية لم ترسله، ولكنه رسول الله ـ تعالى ـ إلى الإنسانية. وكان تصحيحًا ذكيا وواعيًا.

وعندما دق جرس التليفون على الجانب الآخر، وسأل: هل هذا منزل الأستاذ يحيى حقى؟ فلما أجابه، قال: أنا محمد الشعراوى، وصلتنى رسالتك الكريمة من رسولك الكريم، وأسأل الله كما سعدت بالإسلام أن يسعد بك الإسلام.

ويبدو أن يحيى حقى طلب أن يتحدث إلىَّ، فأعطانى الشيخ الشعراوى التليفون، فقال لى يحيى حقى: أشكرك جدا يا إبراهيم على أنك أتحت لى هذه الفرصة للتحدث إلى الشيخ الشعراوى.

فقلت له بامتنان: بل أنا الذى أشكرك جدا؛ لأنك الذى أتحت لى هذه الفرصة للقاء الشيخ الشعراوى.

وأخذ الشيخ الشعراوى التليفون ليقول ليحيى حقى: أدعو الله أن أستوعب هديتك وأن أمثلها للمسلمين لينتفعوا بها.

وقام الشيخ ليُهدِيَنى مصحفًا شريفًا طبعة الأزهر الشريف، فلما طلبت منه أن يكتب لى إهداء، قال لى: إن المصحف نفسه

هدية وهدى وإهداء، لا يُكتب عليه شىء بعد المكتوب فيه من الله تعالى.

* * *

والله ـ سبحانه ـ قد جعل من الشيخ الشعراوى هدية للتذكير بكتاب الله، وقد اصطفاه الله واختاره ليقوم بمهمة وراثة الأنبياء فى دعوتهم، ولو كان الشيخ الشعراوى مخيرًا فى اختيار طريقه فى الحياة لاختار حياة الريف وفلاحة الأرض التى كان يحبها ويهواها، ولكن نظرة من الأب حازمة، وعلقة ساخنة من سيدنا شيخ الكُتاب، كانتا من الأسباب المسببة والمقدرة لكى يتجه الشيخ فى طريقه الذى لا طريق سواه؛ ليصبح إمام الدعاة فى عصره. والقصة كما يرويها الشيخ فى حديث الذكريات مع صديقه المؤرخ الإسلامى د. حسين مؤنس:

«كان من العادة أن نقرأ اللوح مُصحَّحًا قبل حفظه. والتصحيح يتم بمساعدة المصحح أو العريف مساعد سيدنا الشيخ فى الكُتاب. واللوح هو ما يجب على الطفل حفظه من آيات القرآن الكريم، ثم نعاود تسميع ما حفظناه للشيخ.

والذى حدث أننا لم نصحح ـ فى إحدى المرات ـ ما سوف نحفظه، ثم علم الشيخ بهذه الواقعة. وفى اليوم التالى طلب منى

أن أتلو عليه ما حفظت. وكنت قد حفظت الآية كما أثبتها فى اللوح بما فيها من الخطأ هكذا ﴿**حم عسق**﴾ ولم أقرأها مثل نطقها سماعًا. وبسبب ﴿عسق﴾ عرف الشيخ أننى لم أصحح قراءة القرآن؛ لأن قراءاته تختلف عن الشكل المكتوب به. انظر إلى قوله تعالى فى أول سورة البقرة: ﴿أ.ل.م﴾، وانظر إليها فى سورة ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾ فهى تختلف فى السورة الأولى عنها فى الثانية، رغم أن مكونات ﴿**ألم**﴾ فى كل منهما واحدة. وبسبب الخطأ الواضح فى القراءة، حملنى الشيخ إلى أعلى، وألقى بى إلى الأرض، ثم عاود الكرة مرات ومرات، وأنا أصرخ وأستغيث. وليس هناك منقذ ولا مغيث، إلا إرهاقه وتعبه هو نفسه.

عرفت فيما بعد أنه لهذا السبب نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ مسموعًا ولم ينزل مكتوبًا.. وهذا إعجاز القرآن، وإعجاز رسول الله بعد أن سمعه، وهو الأمى، من جبريل عليه السلام ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾ [النجم: ٤].

ويقول الشيخ عن نفسه: «الطفل فى هذه المرحلة ليست له إرادة، ولا يبدى رغبة معينة، وليس له إدراك يمكنه من تحديد مستقبله، ولك أن تتخيل أننى شخصيا كنت أريد أن أكون فلاحًا، فلقد تعلقت بالحقل والعمل فيه. استهوتنى الزراعة، ولم

يستهونى وقتئذٍ الأزهر.

ولكن الذى حدث أننى بعد أن حفظت القرآن قال والدى رحمة الله عليه:

يا محمد، قدمت لك طلبًا للالتحاق بمعهد الزقازيق الدينى، وغدًا سوف يكشفون عليك طبيا.

وراعنى الأمر فأنا أريد الزراعة؛ لأننى متعلق بها، وهو يريدنى أن أكون طالب علم، فماذا أفعل؟!

مكرت.. وفعلت ما يفعله الأطفال فى مثل هذه الظروف. وضعت التراب فى عينى لكى تتورم ويطردونى، وحاولت أن أضع فيها «شطة» من التى فى الحقل، ولكننى تراجعت.

ولم تفلح المسألة، وعندما ذهبت إلى اللجنة، اكتشفت أنهم يقبلون المكفوفين. وهكذا ضاعت أول فرصة للهروب من النجاح الذى لمسته فيما بعد.

كان لابد لى من أن ألجأ إلى طريقة أخرى للخلاص من الدراسة فى الأزهر. كان يمكننى إذا أنا جلست أمام الممتحن أن أنكر حفظى للقرآن، وأخطئ عامدًا فى قراءته. وفعلاً لم أقرأ القرآن كما يجب، بل تناسيت بعض الكلمات.

والعجيب هو اكتشاف الممتحن اللعبة، لاحظ سلامة النطق عندى لمخارج الألفاظ والحروف، وهو ما يفعله كل حافظ لكتاب الله.. واستدعى والدى، وكان خارج اللجنة ينتظرنى ليعود بى إلى القرية، فقال له: الولد ابنك غير حافظ للقرآن.

قال والدى فى ذهول: كيف؟!

ثم نظر إلىّ نظرة كافية لأن تسحق أى رغبة أخرى غير أن أتلو القرآن. وفعلاً أسمعت الممتحن ما طلبه منى، فضحك وقال: لقد عرفت من البداية، وحتى لو لم تكن حافظًا لأنجحتك فى الامتحان».

وهكذا كانت إرادة الله مع الشيخ الشعراوى، تنقله من نجاح فى امتحان إلى نجاح فى امتحان آخر، وكل حياته سلسلة من النجاحات فى امتحانات مختلفة. والامتحان الذى يخوضه الشيخ اليوم هو مع كارهيه الذين لا يألون جهدًا فى مهاجمته، ومحاولة تشويه صورته وهدمه، ولكن ذلك لن يفيد فى شىء، فأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض، ومع خواطره وأفكاره نعيش معه فى رحاب الكعبة، وفى رحاب القرآن الكريم.

* * *



الفصل الأول

دروس القــرآن

من قصة إبراهيم والكعبة

* الكعبة

  بيت الله باختيار الله

* المساجد

  بيوت الله باختيار الناس



الكعبة بيت الله باختيار الله
والمساجد بيوت الله باختيار الناس

هكذا يلخص الشيخ الشعراوى رؤيته للمسجد الحرام وبقية المساجد، فالكعبة هى بيت الله الذى اختاره الله وتولى حمايته.

وفى هذا الحوار يطوف بنا الداعية الكبير فى رحاب الكعبة وتاريخها، ويجيب عن كثير من الأسئلة التى اختلف حولها المفسرون.

فهل الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل؟ أم بناها الملائكة بأمر من الله؟

وإذا كان هذا البيت الحرام قد تكفَّلَ الله بحمايته كما رأينا فى قصة أصحاب الفيل، فلماذا تعرَّضَ للهجمات والضربات والهدم كما حدث أيام «الحجاج بن يوسف الثقفى»؟

وإذا كان الله قد بعث برسوله الكريم ﷺ ليرفع راية التوحيد، وقام بتحطيم الأصنام المنتشرة حول الكعبة وعددها بعدد أيام السنة، فماذا يعنى هذا التعظيم للحجر الأسود بين أمة

حطمت الصنم ونبذت عبادة الأوثان؟

وإذا كان الرسول قد أخبرنا بأنه خيار من خيار، حيث تنقَّلَ من أصلاب الطاهرين إلى أصلاب الطاهرات، فكيف يتفق أن يكون والد جده الأكبر إبراهيم، وهو «آزر» كافرًا، والقرآن يذكر ذلك بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً**﴾ [الأنعام: ٧٤] وأسئلة أخرى عن الحلال والحرام والقضايا التي تعترضهما والأحكام القرآنية فيما يتعلق بهما والتى يجيب عنها الشيخ الشعراوى فى رحاب الكعبة المشرفة، من خلال هذه الرحلة الإيمانية المضيئة.

* * *

أول بيـت

* ما مـعنى قوله تـعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

- البيت مـقصود به الكعـبة أول بيت وضعـه الله للناس فى الأرض ليعبدوه؛ لقـوله سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والكعبـة بيت الله باختـيار الله، وكل مسـاجد الأرض هى بيوت الله أيضًا، ولكن باخـتيار الناس. وقد جعل الحق الكعبة حرمًا آمنًا، من أرادها بسوء قصمه الله، وجعل - سبـحانه - مكة كلها حرمًا آمـنًا وسماها «بكة» فى قوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾، وهى فى اللغة من «بَكَّ. يَبُكُّ. بكا» أى «دك. يدك. دكـا» فهى تدك غُـزاتها، وتقهر كل من يعـتدى عليها من أعـداء الإسلام. وقد تكفَّلَ الله بذلك كما تشير أحداث التاريخ.

فهذا أبـرهة الحبشى الذى أراد أن يحوِّل الأنظار عن الكعـبة التى يحج إليهـا العرب، فبنى كـنيسته «الـقُلَيس» بأرض اليمن،

وحشد لهـا من وسائل الجاذبية ما كـان فى عصره، ومع ذلك لم يحج إليهـا أحد، بل وجدوها ملطخة بالطين والـقاذورات، وقد تبوَّلَ أحدهم فيـها، فأصرَّ أبرهة على أن يهدم الكعبـة انتقامًا من العـرب؛ ظنا منه أنه يقـدر على ذلك، ونسى قـدرة الله عليـه، ونسى أن الكعبـة ليست فى حـماية العرب، وإنما هى فى حـماية ربهم وربه ورب الكون كله.

لذلك عندما ذهب عبد المطلب سيد قريش إلى أبرهة يطالب برد إبله المغتصبة منه، تعـجَّبَ الملك الحبشى، وكان قد حسب أنه قد جاءه يترجاه؛ لكى لا يهـاجم الكعبة، ويكف أذاه عن أهلها، وقال له: لقد كنت أكـبرك فى نظرى. والآن سقطت من نظرى، أجـئت تطالب بالإبل وأنت سـيد قـريش، ولا تحدثنى عن أمـر الكعبة؟!

فرد عليه عبد المطلب الرد الذى حـفره التاريخ: «أما أنا فرب الإبل، وللبيت رب يحميه».

للبيت رب يحـميه؟ نعم؛ لأنه بيت الله باختـيار الله. وقد سجل القرآن قصص حمايته للكعبة فى قول الحق: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ**

﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ - ٥].

*** الله يخاطب رسوله «ألم ترَ».. فهل رأى الرسول ما حدث؟**

- تأملوا دقة القرآن لتعرفوا أنه كلام رب. وانظروا إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ والكلام موجه إلى من؟ إلى محمد ﷺ. وهل رأى محمد جيش أبرهة وحجارة من جهنم تلقيها عليه الطير الأبابيل؟ كان الظاهر فى الأمر أن يقول: «ألم تسمع يا محمد» ولكن الحق - سبحانه - يريد أن يقول: إن إخبارى لك يا محمد عن شىء قد حدث لا تأخذه على أنك سمعته، بل خذه على أنك رأيته. فكأن ما يخبرنا الله هو صدق الصدق الذى لا يتطرق إليه أى شك كأننا رأيناه. والدليل على ذلك أن الله هو الذى جعلنا نعلم علمًا ماديا من أسرار الكون ما كنا لا نعلمه، فهل كانت الكهرباء مثلاً موجودة أو غير موجودة قبل أن نكتشفها؟ كانت موجودة حتى كشف الله لنا أن ندركها ونعلم بوجودها.

وكذلك إذا حدثنا الله عن شىء موجود لا تدركه عقولنا، علمنا أن وجوده يقين، وإذا حدثنا الله عن شىء قد حدث علمنا أنه يقين، كما حدثنا عن قصة أصحاب الفيل، فقال لرسوله:

إننى يا محمد أخبرك بقصتهم، فيكون تلقيك لخبرى لا كمن يسمع، ولكن كمن يرى ويشاهد ويعاين، وكذلك فى كل حدث من الأحداث التى أخبرك بها كقصة حماية الكعبة، فإذا ما عرفنا أن أول بيت وضع للناس قبل وجود الناس كان بمكة مباركًا وهدى للعالمين، فقد يسأل أحدكم: وكيف يتفق ذلك مع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧] فنقول إن إبراهيم لم يبنِ الكعبة أولاً؛ لأنها موجودة من قبل إبراهيم وقبل آدم، ولكن ما الذى فعله إبراهيم؟

إن للبيت قواعد وضعَها الله، ثم انطمسَتْ هذه القواعد مع تقادم الأزمان، وأصبح المكان مليئًا بالفضلات والقاذورات ومخلفات الإنسان، فأرشد الله إبراهيم إلى مكان البيت وحدوده، فطهره إبراهيم؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]، وبعد أن طهره، رفع قواعده، وأقامه بمساعدة ابنه إسماعيل كما يقول الحق: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾. وكان يكفى إبراهيم أن يبنى البيت بارتفاع ما تطوله يداه، ويكون قد

أدى ما عليه من تكليف الله له. ولكن انظروا إلى عشق التكليف الإلهى. لقد احتال إبراهيم بعقله وابتكر فكرة؛ لتكون له قدرة فوق المقدور عليه، وأتى بحجر، ووقف عليه؛ ليرتفع بالبناء أكثر. ولو لم يكن ابنه إسماعيل فتى صغيرًا، لأتى بحجر، ووضعه فوق الحجر. ولكن لأن إسماعيل كان لا يزال صغيرًا وليس فى مقدرته أن يناول أباه الأحجار للبناء بأكثر من هذا؛ فقد ارتفع إبراهيم ببناء الكعبة إلى هذا القدر، وبأكثر مما طُلِبَ منه.. بما تطوله ذراعاه.

وهذه حيثية من الحيثيات التى جعلت إبراهيم إمامًا عند ربه هدى وقدوة للمؤمنين، فيقول الحق: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فاستحق إبراهيم هذا التكريم الإلهى؛ لأنه عشق التكليف الإلهى كما رأيناه فى بنائه للكعبة، ودلالات ذلك من حب للعمل والإخلاص فيه بما يجب على كل مسلم أن يلتزم به، ويضع نصب عينيه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥] ويضع نصب عينيه قول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عَمِلَ أَحَدُكم عملاً

أن يتقنه». تتـقن عملك، وتتقن صلاتك، وتتقـن عباداتك لله، وتتقن تنفيـذك لأوامره واجتنابك نواهيه؛ حبـا لله، ومراعاة لله، وإخلاصًا وتفانيًا كما فعل إبراهيم.

* * *

* ما سبب التجويف الموجود بالحجر الأسود؟

- إن إبراهيم هو الذى صنع ذلك التجويف بـالحجر الأسود؛ ليثـبت عليه قـدميـه من الانزلاق، وهو واقف عليه يرفع قـواعد الكعبة. إذن يبقى الحجر الأسود رمزًا لتفانى إبراهيم وإخلاصه فى تنفيذ تكليف ربه، ورمزاً لعشق التكليف الإلهى.

* * *

معنى زمـزم

*** ما دلالة سعى الحجاج بين الصفا والمروه سبع مرات؟**

- سيبـقى سعى الحجاج بين الصفا والمروة رمـزًا لسعى هاجر أم إسماعيل بينهما؛ بحثًا عن الماء لوليدها. كما ستبقى مياه زمزم رمزًا وتصـديقًا لقـول أم إسماعـيل: «إذن فإن الله لا يضـيعنا»، عندما أتى بهـا خليل الله ومعها إسـماعيل طفلاً صـغيرًا إلى وادٍ غيـر ذى زرع ومن ثم فلا ماء؛ لأنه لا يوجـد زرع ولا إنسان إلا حيث وجد الماء، فـقد ترك إبراهيم هاجر وإسمـاعيل في ظروف نتيـجتهـا الحتميـة الهلاك. وهذا ما أدركـته هاجر وتعـجبت له، وأخبرت إبراهيم بمعناه وهو يمضى ولا يرد على تـساؤلاتها؛ فقد نفذ أمر الـله وكفى، لذلك حينما قـالت هاجر لإبراهيم: أألهك أمرك بهذا؟ قـال لها: نعم. فاطمأنت نفـسًا وهدأت بالاً وقالت: إذن لن يضـيعنا الله أبدًا. ولمـا مر الوقت راحت تبـحث عن الماء ساعية بين هذين الجبلين «الصفا والمروة»، لعلها تجد فى ناحية هنا أو ناحية هناك ماء، إن لم يكن من أجل نفسها فمن أجل ولدها، وبعد أن أدركها التعب بعد سعـيها سبع مرات بين الصفا والمروة؛

عادت وقد أدركت أن لا فائدة ولا جدوى فى بحثها وسعيها، ثم فوجئت بأن الماء قد نبع عند قدمى إسماعيل غير مصدقة، ومن فرحتها راحت تحوط الماء بيديها وتقول: «زم . . زم».

والذى سُمِّىَ لذلك زمزم، أى «اتلم. اتلم» خوفًا على الماء أن يضيع ويذهب، فأوحى الله إليها بجبريل أن لا تخافى ودعى الماء؛ فإنه باقٍ تشربين منه أنت ووليدك ويشرب منه المسلمون إلى يوم القيامة.

إذن فقد صدقت مقولة هاجر . . إن الله لا يضيعها ووليدها. لقد سعت وبذلت جهدًا، فأخذت بالأسباب. ولو عثرت على الماء من سعيها فماذا يكون القول فى قضيتها «لن يضيعنا الله»؟ لقد أخذت بالأسباب سعيًا وجدا واجتهادًا، ولكن رب الأسباب يعطى بغير أسباب، ولكن ذلك لا يمنع أن نسعى ونعمل، ولكن نوكل أمرنا إلى الله؛ لأن أسباب البشر ظواهر والحق يُجْرِى مشيئته بغير هذه الأسباب، وإلا فماذا يعنى قول الحق لمريم وهى توشك أن تضع عيسى عليه السلام ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا** ﴾ [مريم: ٢٥]، فهل مريم فى حال يسمح لها بهز النخلة؟ وحتى أقوى الرجال ليس فى مقدوره هز النخلة، ولكن أمر الله لمريم بهز النخلة مجرد صورة فقط لممارسة الأسباب. وهذا درس لنا . . أن نمارس

الأسباب ونحن متيقنون أن الأسباب لا تأتى لنا بالنتيجة. ولكن رب الأسباب هو الذى يأتى لنا بالنتيجة، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] أنت فقط رميت فى الظاهر، ولكن الحقيقة أن الله هو الذى رمى وأوصل رميك إلى هدفه، وإلا فهل يعنى أن ضرب إسماعيل وهو طفل - وحتى لو كان رجلاً - للأرض بقدمه كافٍ لتفجير مياه زمزم؟ إنها فقط أسباب شكلية. ولكن الفعل للمسبب الأعلى وهو الحق سبحانه.

ولذلك عندما انتصر الإسلام، وأراد الله تطهير البيت الحرام من كل المشركين فلا يقربونه؛ خاف مسلمو مكة على أرزاقهم؛ لأن مجيء محمد إلى البيت الحرام وتحطيمه للأصنام التى كان يحج إليها المشركون فى الكعبة - مما كان يساعد على رواج تجارة قريش ويعينهم على المعيشة بقية شهور السنة - قد أزال كل هذا، ولأن الله وهو الذى خلق البشر ويعلم ما ينفع النفوس البشرية وما يديم نفعها، طمأنهم وضمن لهم الرزق والغنى، نسمع ذلك فى قول الحق سبحانه: ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وهل حدث أم لم يحدث؟ لقد حدث وأصبحت مكة يجيء إليها من ثمرات كل شيء، فهل إذا قلنا امنعوا الخمور تنفيذًا لأمر الحق هل تخشون ما تدَّعونه بأن الخمر ضرورية لوجود السياح وتنشيط السياحة التى هى مورد للثروة؟ هل أنتم تساعدون الله على أرزاقكم؟! إن تنفيذكم لأوامر الله لا يجعلكم تخشون فقرًا أبدًا، بل انتظروا رزقًا، فلعل الله يبدلكم بموارد السياحة موارد أخرى، كأن يفجر لكم بئر بترول، أو يفتح عليكم بمنجم فحم أو حديد، ويرزقكم من حيث لا تحتسبون إن اتقيتم الله وراعيتم حدوده واتبعتم منهجه؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، مثلما رزق هاجر ووليدها إسماعيل بماء زمزم، ومثلما رزق أهل البيت الحرام وأغناهم.

إن ما يحكيه لنا الحق فى قرآنه مما ذكرنا طرفًا منه عن الكعبة وقصة إبراهيم ليس القصد منه التسلية مما يُقصَد إليه من القصص البشرية إضاعة للوقت، ولكن قصص القرآن يقصد به أن يتعلم المسلمون دروسًا مما يوجههم الحق ـ سبحانه ـ إليها وما يذكرهم بها.

الأدب الذى يعلمه الله

*** ما المعانى التى يجب أن يستوعبها الحاج فى رحلته إلى الأراضى المقدسة؟**

ـ الحج رحلة واحدة فى الحياة الإيمانية، يكفى المسلم أن يقوم بها فى العمر مرة واحدة، ليترك نعمة المنعم ـ سبحانه ـ الذى يعيش معها فى كل مكان، ليأتى فى الحج إلى المنعم نفسه وقد تَساوَى مع غيره من عباد الله الذين جاءوا لتلبية نداء الحق ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [آل عمران: ٩٧] فلا يعرف أحد غيره بمقادير وألقاب، فقد أصبح الخفير بجوار الوزير يشاهده وهو يبكى، فقد صار الكل سواء فى بيت الحق.

ثم يريد الحق أن يؤدبنا تأديبًا إيمانياً مع كل ما يخدمنا من حيوان ونبات وجماد، ويقف الإنسان منها موقف السيد المخدوم، حتى إذا جئت إلى الحج إلى بيت الله الحرام يعلمك الحق أن تتأدب مع هذه الأجناس التى فى خدمتك، فيأمرك الحق ألا تقطع شجرة وألا تصطاد حيوانًا، فلا تقرب أيهما؛ لأن الحق جعل

الحرم آمنًا بما فيه من نبات وحيوان، ويبقى الجماد وهو أحط الأجناس، يأمرك الحق أن تسلم عليه وتقبله. وإن لم تستطع، تشير إليه (وهو الحجر الأسود)، وإن لم تصل إليه، تظن أن حجك لن يصلح، فقطعة الحجر هذه هى التى تتحكم فى خطاك وتدور حولها. وقد جعل الله كل هذا التعظيم للحجر ليقضى على طغيان الإنسان أمام نفسه.

* * *

*** ما الفرق بين تعظيم الحجر الأسود وتعظيم الناس فى الجاهلية لأصنامهم؟**

- إن هناك فرقًا كبيرًا؛ فالحجر الذى كان يعبده الناس فى الجاهلية هو مراد نفوسهم، ولكن الحجر الذى يعظمه الناس فى الحج هو مراد الحق، وهكذا انتقلت المسألة من مراد نفسك إلى مراد الله، ولذلك فإن الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب قال وهو أمام الحجر الأسود: «أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قبَّلْتُك»، فعظم عمر الحجر؛ لمراد الله فى هذا التعظيم.

ولكن الحق لايترك أوامره هكذا دون اختيار لمن أمرهم، هل يصبرون أم يعصون؟ فيقول الحق: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ**

اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ [المائدة: ٩٤]، فيجعل الله صغار الوحوش والفراخ فى متناول الأيدى أو الرماح بأقل مجهود، وحتى تقع المعصية على الحجاج. . هل يفعلونها فيصطادون أم لا يفعلونها إذا كان إيمانهم قويا؟ وذلك لأن هناك فرقًا بين أن يلح الإنسان على المعصية وبين أن يصل إلي منزلة لا يلح فيها على معصية؛ لأن الله أمره بذلك.

والحق يريد أن يعطى زوار بيته مناعة. صحيح أنهم لا يلحون على المعصية، ولكن الحق يبتليهم بشىء بسيط. . لماذا؟ لكأن الحق يقول: حتى أعودكم ألا تتهافتوا على المعصية وألا تقعوا فيها رغم أنها سعت إليكم ﴿ **لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ [المائدة: ٩٤]، وهل الله فى حاجة لأن يعلم؟ إن الحق عالم بمن يخافه لأوامره قبل أن يخلق خلقه؟ ولكن هناك فرق بين هذا العلم الأزلى للحق والعلم الذي يكون حجة على الناس؛ لأن علم الله ليس على الناس؛ لأنهم قد يقولون: لو ابتلينا يا رب واختبرنا كنا سوف ننجح، فيبتليهم الحق لتكون نتيجة الابتلاء حجة وشهادة عليهم.

وهكذا يأتى الحج مناسبة للتربية الإيمانية من الحق لزوار بيته

الذى جعله الحق حرمًا آمنًا، وجعله قيامًا للناس.

*** ولماذا الكعبة بالذات شرَّفها الحق بالحج كفريضة؟**

ـ ذلك لأنها ـ كما ذكرنا ـ بيت ربهم باختيار ربهم، وكل المساجد قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله، وإذا كان الحق قد جعله حرمًا آمنًا، فهذا دليل على أن له حرمات كثيرة؛ لأن البيت نفسه حرام، وجعله الله قيامًا للناس، وقيامًا أى يحفظ للناس قوام حياتهم ووجودهم، وقوام الحياة يكون بالطعام والشراب لحفظ الحياة، ويكون بالتناسل لحفظ النوع، وبدفع الأذى لحفظ الأمن، والسيادة كحياة راقية، وكل هذه مقومات الحياة المادية.

ولكن الحياة حياتان، حياة بمعنى الروح تتصل بالمادة فتتكلم وتتحرك وتحس. وهذه يشترك فيها المؤمن والكافر، وحياة أخرى بدل أن تنتهى فى سنوات تستمر وتتصل، وهذه هى الحياة التى يريدها الحق للمؤمن. وقد جمع البيت الحرام نوعى الحياة؛ لأنه أول بيت وضع للناس فى الأرض ببكة، وما دام قد وضع لقوله تعالى : ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾ [آل عمران: ٩٦] فإن الله هو الذى يكون قد وضعه وليس خليل الله إبراهيم، كما يظن بعض الناس، وإلا فهؤلاء الذين يقولون إن إبراهيم هو الذى وضع البيت، نسألهم: ولماذا لم يكن للناس قبل إبراهيم

بيت؟ وهل يكون البيت لناس دون ناس أو عصر دون عصر؟ إذن فلابد أن يكون للناس بيت منذ آدم.

*** من أين إذن جاء الظن بأن إبراهيم هو الذى بنى البيت؟**

ـ تأمل ما يقوله الحق سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]، إن الله هو الذى وضعه وليس خليل الله إبراهيم كما يظن البعض. وإلا لماذا يكون للناس فى عهد إبراهيم بيت بينما الناس من قبله لا بيت لهم؟

وقد جاء الظن بأن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة من الفهم القاصر لقول الحق: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ**﴾ [البقرة: ١٢٧]. وإسماعيل لابد أن يكون قد كبر ليعاون والده إبراهيم الذى جاء به طفلاً ومعه أمه هاجر وقد تركهما إبراهيم قائلاً فيما رواه الحق فى قرآنه: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فقد كان هناك إذن البيت الحرام، والبيت مكان، وقد حدد الحق المكان بقوله سبحانه: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ**﴾ [الحج: ٢٦]، فالبعد الأول ـ وهو المكان ـ موجود، والبعد الثانى ـ وهو

قواعد البيت ـ موجود، فلم يبقَ إلا أن يرفع إبراهيم هذه القواعد حوائط وجدران.

*** ما معنى كلمة «الكعبة»؟**

ـ الكعبة اسم من الأسماء، وكل الأسماء مأخوذة من المحسات، والكعبة هى الشىء الناتئ أو البارز عن المتساوى، مثل الكعبين فى القدمين، والكعبة نتوء وهو الارتفاع، والارتفاع هو علامة البيت، وليس هو البيت؛ لأن البيت مساحة، والارتفاع لا لزوم له إلا للدلالة على البيت، فننقله من مساحة إلى حجم؛ لأن الذى يدل على المساحة هو المبانى دلالة على البيت.

*** وما معنى كلمة بيت؟**

ـ هو ما أعد للبيتوتة؛ لأن الإنسان يضرب فى الأرض طيلة نهاره بحثًا عن الرزق، ثم يعود آخر النهار ليستريح فى البيت. وقد جعل الحق البيت الحرام راحة لعباده من كل ما يخطر ببالهم من عناء وذنوب دنياهم، فهم يتخلصون من كل ما يذكرهم بالدنيا ونعيمها الفانى ليكونوا فى حضرة المنعم يتصلون به رجاء أن يدوم اتصالهم به بعد ذلك اتصالاً دائمًا يوصلهم إلى النعمة الدائمة فى الآخرة، ليس بأسبابهم كما كان فى الدنيا ،ولكن بأسباب ربهم فى الآخرة، كأن الحق قد جعل بيته راحة لعباده

وكعبة يقصدونها للحج ويتجهون إليها فى كل صلاة حينما وضعها الله بمكة.

*** اختيار الكعبة فى بكة أو مكة فى وادٍ غير ذى زرع، فهل كان البيت الحرام على هذه الحال منذ أن وجد بشر فى الأرض منذ عهد آدم؟**

ـ لقد كانت حول البيت حياة وبشر، ولكن كعهد الناس إذا طال عليهم الوقت نسوا وبدءوا يتركون عبادة الله، وتهدَّمَ البيت مع الزمن فلم يعتنوا برفع قواعده، فتركوها حتى طُمرت، وجعلوا مكان البيت قاذورات وأوساخًا، ويبدو أنه قد حدثت أشياء دفعت بسكان هذه المنطقة إلى الهجرة، حتى خلا المكان ولم تصبح به أى صور للحياة.

حتى شاء الحق إحياء العبادة والحج إلى بيته الحرام، فأمر نبيه ورسوله إبراهيم أن يذهب إلى مكان البيت الحرام، ودله الحق عليه وأمره أن يطهره ويرفع قواعده مستعينًا بابنه إسماعيل، فيقول الحق: ﴿ **وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود** ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ثم دعا إبراهيم ربه ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [البقرة: ١٢٦] فقد أراد إبراهيم ألا

يكون الرزق فى البلد الحرام إلا للمؤمنين.

ولكن الحق قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فعلَّمَ الحق إبراهيم أن الرزق للمؤمن والكافر؛ لأن الله خلق الاثنين واستدعى الجميع إلى الوجود فلم يستدعوا أنفسهم، لذلك فحق عليه أن يرزقهم: الكافرين والمؤمنين، ولكن الكافرين سينالهم جزاء كفرهم فى الآخرة عذابًا، هكذا علم الحق خليله إبراهيم، كما علم زوجته هاجر درسًا من قبل فى وجوب الثقة بالحق حينما تركها إبراهيم هى ووليدها إسماعيل فى هذا الوادى غير ذى الزرع عند بيت الله المحرم، فلم تهتزّ عندما علمت أن هذا هو أمر الله وقالت: «إذن لا يضيعنا الله». ولم يضيعها الله، فوجدت المياه تتفجر عند قدمى ابنها الرضيع.

* * *

*** ما الذى نستفيده من هذه القصة؟**

أن الله لم يعطِ هاجر المياه من سعيها وإلا لم تثبت قولتها: «لن يضيعنا الله»، إنما هى وجدت المياه عند قدمى ابنها الرضيع.

وذلك يخدم قضيتين هما: أن على الإنسان أن يسعى على قدر جهده كما فعلت هاجر، وفى الوقت الذى نتذكر فيه

الأسباب والمسببات نتذكر أيضًا المسبب، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل.

وما دام إبراهيم قد أسكن ذريته عند بيت الله المحرم فما هى شغلتهم هناك؟ يقول إبراهيم فيما ذكره الحق: ﴿ **لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧] أى ليعبدوا الله. ثم دعا إبراهيم ألا يكونوا وحدهم، فقال ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وأن يرزق الحق هذا البلد الذى به البيت، فيقول سبحانه: ﴿ **يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا** ﴾ [القصص: ٥٧] يأتون به رغمًا عنهم، وإنك لتجد فى «الطائف» العنب والخوخ لا يبيعه أهلها لك، ويقولون لك إنه لمكة اذهب واشتر من هناك.

فأصبح البيت الحرام قوامًا لحياة الناس، ومن دخله كان آمنًا ولو كان قاتلاً، وأعطى لهم السيادة، كما رأينا قريش تتعالى على العرب وتتفاخر عليهم بوجود المسجد الحرام لديهم، فلا تتعرض أى قبيلة لقوافلهم فى أى مكان؛ لأن موسم الحج سوف يأتى وتنتقم قريش من كل من تعرَّضَ لقوافلها. لذلك فلا يتعرض لهم أحد، وهكذا فإن الحق قال: ﴿ **أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [قريش: ٤].

* * *

*** ولكن إذا كان الحق قد جعل البيت الحرام آمنًا، فكيف نفسر ما روته أحداث التاريخ عن الحروب التى دارت حول الكعبة وأدت إلى ضربها وتهدم بعض أجزائها، مما جعل الناس مفزعين غير آمنين على أنفسهم؟**

ـ إننا يجب أن نعرف أن بيت الله الحرام آمن كإخبار شرعى.

*** وما معنى الإخبار الشرعى؟**

معناه أن الله يقول: إن هذا البيت آمن إن التزمتم كمؤمنين أن يكون البيت آمنًا طاعة لله. وإن لم تلتزموا فلستم مؤمنين، إذن فهناك فرق بين خبر كونى لا يتخلف، وخبر شرعى يأمر الحق به فيُطاع أو يُعصى.

فالبيت الحرام إذن يحظى أهله بالرزق من كل الثمرات، ويحظون بالأمن إن التزموا ويكون البيت آمنًا كما أراد الله. وهذا هو قوام الحياة الدنيا، أما قوام الحياة الآخرة فهى الحياة المتصلة المستمرة غير المحدودة بزمان، ولها وسائلها.

*** وما هى وسائلها؟**

ـ هى أن يكرم الحق زوار بيته الحرام، فيكفر عنهم سيئاتهم ويغفر لهم ذنوبهم، فيعودون كيوم ولدتهم أمهاتهم.

الإيمان هو المقصود

*** ما المقاصد الشرعية من فريضة الحج؟**

ـ ليست مقاصد شرعية أو غير شرعية، ولكن هناك فرض فرضه الله علينا. وعندما يفرض الحق علينا أمرًا من الأمور فإن علينا الالتزام به ولا نسأل عن المعانى أو العلة من ورائه؛ لأنها حينذاك لن تكون عبادة ولن تكون عقيدة. العبادة والعقيدة هما فى معناهما طاعة؛ لأنه إذا قيل فى مقاصد أو حكمة أو شرعية الصلاة إنها رياضة بدنية وتقوية للعضلات، فكيف يكون الجواب بالنسبة إلى من يصلى جالسًا أو نائمًا إذا كان غير مستطيع، وإذا كان يقال فى حكمة الوضوء إنه نظافة، فماذا تقول عن التيمم بالتراب إذا تعذر وجود الماء للوضوء. وإذا قيل فى حكمة الصوم إنها لكى يشعر الغنى بآلام الفقير، فإن معنى ذلك ألا يصوم الفقراء... وهكذا فى بقّية الفروض، لا تُقاس بمقاصد وأهداف وحكمة شرعية أو غير شرعية؛ لأن شرط الإيمان أن تطيع دون أن تعلم السبب، فلو عرفْتَ الحكمة والمقصد مقدمًا، فذلك لا يُسَّمى إيمانًا، وإلا فأين الإيمان إذا انتظرت ألفًا وأربعمائة سنة حتى تعرف الحكمة من تحريم لحم الخنزير.

لقد آمنا بما أمر الله وأطعناه، فإذا جاءت الحكمة وظهرت بعد ذلك، فإن ذلك يزيدنا إيمانًا ويقينًا بأن ما أمر به الله وفرضه علينا هو الخير كل الخير، وإلا هل يمكن أن نسمى الأوربيين الذين اكتشفوا بالعلم الحديث وجود دودة شريطية مهلكة للإنسان أنهم مؤمنون؛ لأنهم عرفوا مخاطر لحم الخنزير فتجنبوه؟ إن الإيمان بعد معرفة العلة يفقد اسمه ومعناه، وما دمْتَ قبلْتَ أن تكون مسلمًا مؤمنًا فعليك الطاعة والتسليم؛ لأن أحدًا لم يجبرك على الإسلام والإيمان، أنت اخترته بنفسك، فعليك أن تقبل كل ما يتطلبه منك، والله لا يكلف إلا من آمن به.

وعلى المؤمن الالتزام بما أمر الله، ولا يسأل عن أسباب الأمر أو عما وراء الفعل، فهل أنت تسأل الطبيب عن الأسباب التى جعلته يختار هذا الدواء للمريض دون سواه؟ إنك حينما تسأل لماذا تتناول هذا الدواء، تقول: لأن الطبيب كتبه، ولا أحد لماذا كتبه؟ وما هى الأسباب؟ وإلا فعليك أن تدخل كلية الطب سبع سنوات لتعرف، فإذا كان هذا هو حال البشر مع البشر، فكيف بحال البشر مع رب البشر؟! إذا أمر فسمعًا وطاعة؛ لأن الله لا يريد إلا خيرًا بالناس مؤمنهم وحتى كافرهم. انظر بتأمل إلى رحمة الحق وعظمته حين يخاطب الكافرين به ويسميهم «الناس» فيقول لهم: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا**

تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

إنه يطلب منهم - رغم كفرهم به - أن يأكلوا الحلال الطيب، ويحذرهم من الشيطان وأعوانه. إنه ربهم الحريص عليهم الرحيم بهم، حتى لو كفروا به، دون أن يطلب منهم جزاءً ولا شكورًا، ولكنه حين يكلف يحدد الخطاب متوجهًا به إلى من آمنوا به، فيقول الحق: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

فإذا كان الله حريصًا على الرزق الحلال لمن كفروا به، أفلا يكون - سبحانه وتعالى - أحرص وأحب وأرحم بمن آمنوا به، فتكون كل تكليفاته لهم شاملة للخير كل الخير، بما تحتويه من فوائد روحية وجسدية؟! فأنت فى الحج مثلاً تترك الأهل والأصدقاء والأحباب والأوطان، تترك أنيسك المادى والمعنوى من أهلك ووطنك، وتتحمل مشاق السفر والاغتراب عن كل هؤلاء، لتتجرد وتتفرغ من إلف العادة إلى حرارة العبادة؛ لتكون بالقرب من الله مُلَبِّيًا مُسَبِّحًا ذاكرًا شاكرًا مُصلِّيًا طائعًا باكيًا طالبًا رحمة الله، فيهون كل شىء أمامك.

ويصغر كل شىء أمامك وأنت فى رحاب الله فى البيت

الذى اختاره الله، وبالقرب من الرسول الذى أرسله الله، وسعيك لهذا اللقاء برغبتك واختيارك واشتياقك هو امتثال وطاعة وتسليم لمن كلفك وأمرك ودعاك فلبيته، وأمرك فأطعته، وكلفك فنفذت التكليف، وذلك هو الإيمان، وذلك هو الدليل على قوة الإيمان.

*** مارأى الإسلام فى الحج على نفقة الدولة؟**

- لم يفرض الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام إلا على المسلم المستطيع، بنص الآية: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**﴾ [آل عمران: ٩٧].

والاستطاعة تعنى أن يكون لديك مال حلال فائض عن حاجتك وعن حاجة من تعول بما ستتركه لهم من نفقات عندما تكون حاجا، وأن تكون لديك الصحة والمقدرة على أداء فريضة الحج بكل ما تتطلبه من مناسك. إذن فالحج يتطلب استطاعتك وقدرتك المالية والجسدية، فإذا فقدت شيئًا منها فليس عليك شىء، ولا أحد مطالب أن يعينك على ذلك، والدولة منهكة بأعباء ثقيلة، ولا يجب أن تقوم بتسفير أى واحد على نفقتها إلا إذا كان وجوده فى هذا المكان ضرورة لخدمة الحجيج، وما عدا ذلك لا يجوز.

ورُبَّ مسلم لم يحجَّ أوفر حظا من الذين يحجون؛ لأن الذى يؤدى فرض الحج لا يعلم أيتقبلها الله منه أم لا، أما غير القادر على الحج فقد سقطت عنه الفريضة، بشرط أن لا يقدر على نفقات الحج بحيث لا يقول مثلاً سأنتظر حتى أشترى السيارة أو أبنى بيتًا، أو أعمل متاعًا من متاع الدنيا، فالحج مقدم كفرض على مثل هذه الأمور التى ليست ملحة أو ضرورية. وإذا كان المسلم قادرًا على تحمل نفقات الحج وأوفدته الدولة لأداء فريضة الحج فقط لغير ضرورة يتطلبها وجوده فى موسم الحج، فعليه أن يتنازل عن هذه الفرصة ويحج من ماله الخاص، وأما إن كان طبيبًا ذهب لعلاج الحجيج، أو ساعيًا ذهب لحمل أمتعتهم، أو دليلاً ليرشدهم إلى الأماكن، أو واعظًا دينيا يتولى شرح المناسك، وغير هؤلاء ممن لهم ضرورة، فلا بأس من حجهم على نفقة الدولة، لأن لوجودهم عملاً وهدفًا. أما القادرون الذين ليس لوجودهم مع بعثة الحج أى دور، فعليهم أن يوفروا النفقات التى ستنفق عليهم، فالدولة بحاجة إليها لتطعم أو تكسو إنسانًا أو توفر فرصة عمل لشاب عاطل، أو علاج مريض محتاج، فمثل هؤلاء أحق بالنفقات من الذين ترسلهم الدولة للحج على نفقتها، فمثل هذه الأمور لا تجوز ويجب إعادة النظر فيها.

*** وهل يجوز الحج من خلال جمعية أو رابطة؟**

- إذا كان الحج من خلال تنظيم جمعية أو رابطة بحيث يشترك فيه مجموعة من الناس بنفقات محددة، فهذا لا بأس به، وهو حج مقبول إن شاء الله، تتضامن فيه الجهود من خلال اشتراكات بدفع مبلغ من المال ثم بعد ذلك بدفع مبلغ آخر، وهكذا.

*** هل يجوز الحج عن ميت؟**

- نعم يجوز، فعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده فى الحج، وأدركت أبى وهو شيخ كبير لا يثبت على راحلة، أفحج عنه؟ قال: نعم. حديث متفق عليه.

وفى حديث حسن صحيح عن لقيط بن عامر - رضى الله عنه - أنه أتى النبى ﷺ فقال: إن أبى شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن (الارتحال للسير والحج للعمرة)، فقال عليه الصلاة والسلام: حج عن أبيك واعتمر. رواه أبو داود والترمذى. قال حديث حسن. هكذا يجوز الحج عن العاجز. وحكم الميت هو حكم العاجز، فيجوز الحج عنه.

*** ما حكم حج تاجر المخدرات من ماله إذا اعتزم التوبة؟**

ـ إذا تاب تاجر المخدرات فعليه أن يجتنب المال الذى اكتسبه من هذا الطريق، ثم يتحرى مالاً حلالاً ويحج منه؛ لأن مال المخدرات جاء من باطل وبطريق غير مشروع، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، فمن شروط قبول الحج أن يكون حلالاً، ومال المخدرات ليس بحلال.

*** هل اعتمر الرسول؟ ولماذا قال إن عمرة فى رمضان تعدل حجة؟**

ـ اعتمر الرسول أكثر من مرة، وإلا لما قال فيما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما: عمرة فى رمضان تعدل حجة، أو حجة معى. (مع النبى ﷺ) متفق عليه.

أما لماذا عمرة فى رمضان تعدل حجة؟ فإن السماء تكون مهيأة بالأنوار، وتهبط منها الملائكة إلى الأرض بأكثر من الحصى؛ ليتوبوا ويستغفروا للصائم، فما بالنا بالصائم وهو يطوف بالكعبة ويسعى بين الصفا والمروة، فقد جمع بين الحسنيين: الصيام كفريضة، والعمرة كنافلة من النوافل التى يثاب المرء عليها ثوابًا بعظم الجهد والمشقة والمضاعفة التى يبذلها الصائم فى أداء مناسك العمرة، فضاعف الله ثواب عمرة رمضان لتعدل حجة.

*** ما تفسير فضيلتكم للرغبة التى تجتاح الحاج فى العودة مرات ومرات إلى بيت الله؟**

- يقسم الشيخ الشعراوى قائلاً: والذى نفسى بيده لو لم يكن الحج ركنًا إسلاميا لحتم شوق القلب ولهفة الروح وهيام الوجدان على المؤمن أن يرحل إلى بيت الله ليشهد مهابط الوحى الأمين ومطلع سيد المرسلين وخاتم النبيين، وليشحن روحه بطاقات اليقين من ذكريات هاجر وفدائيات إسماعيل وإبراهيم.

والمؤمن البعيد عن البيت يتوجه فى صلاته إلى جهة من البيت، ولكنه حين يشهد البيت يقدس كل جهاته فيطوف حوله، وبيت الله مكانه وبناء الكعبة مكين، وقد رفع رمزًا لمركز القداسة ووحدة التوجيه، فالبناء شعار محسن يحدد على الأرض بمدى الطول والعرض، ولكن بعد الارتفاع لا ينتهى عند البناء؛ لأن بيت الله موصول بالسماء.

والمؤمن البعيد عن البيت يتوجه فى صلاته إلى جهة من البيت، ولكنه حين يشهد البيت يقدس كل جهاته، فيطوف حوله. وقد عرفنا كثيرًا ممن حجوا بادئين يصبحون أحرص المؤمنين على أن يعودوا ويحتالون ليفلتوا من قوانين بلادهم فى الحظر؛ ليؤدوا الفريضة مرة أخرى، فلو لم يشهد هؤلاء المنافع

التى وعدهم بهـا ربهم بقوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] ولو لم يتذوقوا حلاوة العطاء وروحانية الصفاء، لاكتفوا بما أدوا من فرض لم يطلبه الله إلا مرة واحـدة، ولكن كيف يعبرون عن حفاوة ربهم بضـيفه فى بيته وهو أكرم من احـتفى وأقدر من أثاب؟

وهل يمتنع على العقل أن يقـتنع بضرورة الحج إلى بيت الله وهو يسـتقبله فـى كل صلاة ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠] وإذا كان المؤمن قد علم البيت على اليقين، فلماذا لا يشهده حتى يرتقى إلى عين اليعقين؟ وحين تفيض عليه بركات البيت فى البلد الأمين يكون قد ظفر بمرتبة حق اليقين.

ولما كـانت الكعـبـة رمزًا لوحـدة القـصـد وشعـارًا لمحـور الالتفاف، كان لابد أن يجعل للطواف مبدأ واحدًا؛ حتى لا يكون لكل طائف مبدأ من حيث دخل. وبـهذا تنضبط مظاهر الوحدة، بجعل الحجر الأسود بداية موحدة وجـعل استلامه شعيرة، ولهذا أخذ الحجر قـداستين: قداسة كونه من البناء، وقـداسة أنه علامة الابتـداء. وسـبـحـان اللـه الذى جـمع فى مناسـك الحج بين النقيضـين، فحجر الكعبة يُقـبَّل ويُعظَّم، وحجر فى منى يُرجَم!

فلا نظر للذاتية، ولكن للغرضية، فالحـجر فى الكعبة شعار إيمان والحجر فى منى رمز شيطان.

وهكذا تتجلـى عظمة الإيمان بالله فى أن يـنقل الإنسان من حجر؛ لأنه وثن، إلى حـجر مثله؛ لأنه شعار، فـالأول كفران؛ لأنه مراد الخلق، والثـانى إيمان؛ لأنه مـراد الحق. وهكذا يصبح الحـجر - وهو أدنى الأجناس - أعـز مطلوب لأكـرم الأجناس، يزدحمون حوله ويسـتميتون للوصول إليه. فسـبحانك ربى! لقد طهرت الإنســان من صلفه، أذهلته عن كـبريائه، فبـأمرك يا ربى نفضـت عند الحجر كـبرياء البـشر، وأعـجب من ذلك أن يكون نشيدهم عند الاسـتلام: «الله أكبر». وذلك هو التـوحيد المقطر، والحق يقـول: ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢].

ولما كـان بيت الله هو القـصـد الأصـيل الذى تهـوى إليـه الأفئدة، كان هو المحور الذى تدور حوله المناسك وتحيط به أماكن الشعـائر ويُضاعَف ثواب الصـلاة فيه إلى مـائة ألف، وأول بيت تُشَدُّ إليه الرحال، كما أخبر بذلك الصادق الأمين.

*** لماذا جعل الله ثواب الحج المبرور الجنة؟**

- إن الحاج يبـدأ أعمال الحج وفى القلب نية، وعلى الجـسد

تجرد مما اعتاد من ثياب تشخِّصُ جـاهه وتنم عن تميزه، فيها عمل الصنعـة وتكلف الأناقة مـسـتـبدلاً بكل ذلك غـير مخـيط أبيض كالفطرة، حـتى يكون الحاج عبـدًا في ركب مندمجًا في سـوائية الخلق حين يُقبِلون على الحق.

ومن هنا يدخل الحـاج في سلام مع الوجود كـله، سلام مع نفسـه التي سالمته فـرضيت أن تمتنع عن كـثير مما أحل الله لغـير المحـرم، فلا شـهوة له في زيـنة ولا طيب، فضـلاً عن رفث أو فـسـوق، وهو في سـلام مع الناس بلا جـدال، وفي سـلام مع النبات فلا يقطعه، ومع الحيوان فلا يصيده ولا يذبحه، وإن صاده فداه، ويظل هكذا حتى يتحلل.

وفي الإحرام من المواقـيت إشعار النفس بأنهـا دخلت حمى الله، وأقبلت على مكان غـير عادي، فلا بد أن يخرج عن كـثير من العادات؛ تربية للمهابة واستحضارًا للقداسة.

فـالحج منهج جامـع لكل عناصره قلبًـا وبدنًا ومـالاً، فهـو تكليف يشتمل على مشقات متعددة؛ لأنه يقيد الفعل ويقيد زمانه ويقـيد مكانه، وليـس ذلك لركن سواه، فـالشـهادة تقـيد فـعل اللسان، ولكن في حرية من الزمان والمكان، والصـلاة تقيد الفعل قولاً وعـملاً وتحدد الزمان، ولكن في حـرية من المكان، والزكاة تقيد فعل التصرف، ولكن فـي حرية زمان ومكان، فالحصاد عند

أى وقت. . . والصوم يحدد الإمساك عن شهوتى البطن والفرج، ويحدد الزمان، ولكن فى حرية مكان، ولكن الحج يحدد كل هذه العناصر، فهو مقيد فى زمن ومقيد فى مكان، ولهذا كان التعبد فيه مركبًا، وفضل من الله أنه جعل جزاءه إذا كان مبرورًا الجنة، واعتبر العبد بغير ذنوب كيوم ولدته أمه.

* * *

*** ما هى خصوصية الحج؟**

ـ الحج تجمع عقدى فذ ومؤتمر عالمى فريد، دعا إليه رب واحد، وحدد دوراته فى زمان واحد، ورسم منهجه بكتاب واحد على رسول واحد، واستجاب له المؤمنون بزى واحد وقصد واحد. وفى جلال هذه الوحدة انصهرت الأجناس والألوان واللغات، وذابت العصبيات والبيئات والطبقات، فلا نسب إلا إلى الإسلام، ولا حسب إلا فى الإيمان. وتلك خصوصية يجب أن تستغل تعارفًا يربط الشعوب بالمودة، وتآلفًا بين الأجناس بالتراحم؛ حتى يقف كل مسلم على وضع إخوانه فى كل بلد وعلى خط دينه فى كل إقليم، وحينئذ تتعاون الطاقات، وتتكامل الإمكانات، ويصبح المسلمون ـ كما قال الرسول ﷺ ـ «كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا».

مشكلة بين العلماء

*** من المعروف أن نسل الرسول ﷺ مطهر من المشركين، فكيف يتأتى أن يكون والد إبراهيم هو «آزر» الذى ينتهى إليه النسب الشريف؟**

هناك مشكلة بين العلماء حول قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً**﴾ [الأنعام: ٧٤] فهل أبو إبراهيم هو «آزر» أم «تارح»؟ وإذا كان «آزر» فكيف يتفق مع قول الرسول ﷺ: «وما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»؟! فقد أخبر أنه من سلسلة نسب موحد لا يمكن أن يكون للشرك فيه مجال. والحق يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ [التوبة: ٢٨] ولو كان «آزر» أبًا حقيقيا لإبراهيم لكان من ذريته «محمد». وهذا محال؛ لأن النسب الشريف مطهر من جهة الآباء والأمهات من الشرك، فكيف نفسر قول الحق ﴿**لأَبِيهِ آزَرَ**﴾؟

نأخذ اللغة واستعمالات القرآن فى معنى الأبوة. والقرآن

صريح فى أن الأبوة كما تطلق على الأب الحقيقى تُطلَق على«أخو» الوالد أو عمه. والدليل أن القرآن الذى قال: ﴿ **لأَبيه آزَرَ**﴾ هو الذى قال: ﴿ **أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾ [البقرة: ١٣٣].

إذن فإبراهيم أب وإسماعيل أب ويعقوب أب. هؤلاء الآباء المذكورون فى هذه الآية. صحيح أن إبراهيم أب؛ لأنه جد، ولكن إسحاق ليس أبًا؛ لأنه أخو يعقوب مع إسماعيل، إذن فالعم أب أيضًا. وحين تُطلَق كلمة الأب حتى فى أعرافنا إذا جاء شخص إلى آخر وقال له أبوك موجود، انصرف هذا إلى أبيه الحقيقى دون ذكر اسمه. ولكن لو قال له: أبوك محمد، فهو يعنى عمه. ولو قال الحق: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ**﴾ [الأنعام: ٧٤] وسكت، يصح أن يكون المقصود هو أباه الحقيقى، ولكنه قال: ﴿ **لأَبيه آزَرَ**﴾ تمييزًا له ليخرج الأب الحقيقى من كلمة أب.

*** ولكن لماذا يطلب الله من الرسول أن يذكر: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾؟**

- لأن الرسول ﷺ جاء على فترة من الرسل، وجاء فى

الأمة المواجهة للدعوة، أمة العرب، إلا أن إبراهيم يعيش فى عقائد هؤلاء القوم، فهو الذى رفع قواعد الكعبة، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل، فبالكعبة تحققت لقريش السيادة والمهابة والسلطان.. ينتقلون بتجارتهم شمالاً وجنوبًا، فلا يتعرض لهم أحد؛ لأن من سيتعرض لهم سيأتى فى العام القادم للحج إلى الكعبة.

ولذلك قلنا عندما تعرضنا لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١] وجاءت بعدها الآيات ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ١ - ٢]، إنه لو تعرض البيت للهدم فى حادثة الفيل لانتهت سيادة قريش، ولكن الله حفظه لهم. لماذا؟ ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾ [قريش: ٣]، الذى رفع قواعده إبراهيم، وإن كانوا يعبدون الأصنام، إلا أن لهم صلة عقدية بإبراهيم، فأراد الحق أن يدخل إليهم من خلاله؛ ليرقق قلوبهم بشأن المسألة العقدية لمواجهة الأصنام، وإبراهيم الذى رفع قواعد البيت حارب فى قومه الأصنام.

وكما أن لإبراهيم مكانته عند الكفار، فله مكانته أيضًا عند اليهود والنصارى، فكل منهم يدَّعيه لنفسه؛ بدليل قوله

تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] ثم يوضح الحق لهم أن إبراهيم مسلم، وإذا كنتم تعتزون به فيجب أن تكونوا مسلمين مثله وتتبعوا محمدًا ودينه الذى أحيا ملة إبراهيم، فيقول الحق: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨] .

ويؤكد الحق أن إبراهيم الذى له مكانة لديهم استنكر عبادة الأصنام فقال لعمه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

وكما اهتدى إبراهيم إلى أن الأصنام ضلال، فقد أراد الحق أن يبين له أسرار ملكوته، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥]. لهذا عندما جاء إبراهيم يتحدث عن الشركاء قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء: ٧٧]، ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨١].

فإبراهيم أسند كل شيء إلى الله خالقه، وإن كانت الظواهر تدل على أن للناس دخلاً فى المسألة، ولكن لو سلسلت كل المسائل والظواهر لوجدتها فى النهاية تصل إلى المسبب الأعلى وهو الله. ولذلك قفز إبراهيم من الحلقات الظاهرية إلى الحقيقة، عرف الحقيقة ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]، فالأطباء يعالجون، لكن الله هو الشافى، وهكذا عرف إبراهيم الحقيقة. ولذلك أخذ سلطانًا كبيرًا فى العقيدة مُعترَفًا به من كل الأنبياء، لذلك قال الله عنه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]، أوفى بما أمره الله به أن يفعله. يقول الحق: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فكان رد إبراهيم ببشريته قائلاً: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]، أى اجعل من ذريتى أئمة، فقال الحق: لا ليست المسألة وراثة دم، إنما يأخذ الإمامة مَنْ يستحقها، لذا لما جاء إبراهيم وزوجه هاجر وابنهما إسماعيل فى مكان صحراوى لا شيء فيه من ضرورات الحياة وهو الماء، قال إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ

﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦] . تنبه إبراهيم إلى حكاية الإمامة التى لا ينالها من ذريته إلا من قد آمن، فدعا الله ألا يرزق أيضًا إلا من قد آمن، فلم يفرق إبراهيم بين عهد الإمامة وعهد الرزق، فأوضح له الحق بأنه فى مسألة الرزق يرزق الكافر أيضًا؛ لأن الطعام من عطاءات الربوبية، إنما المناهج من عطاءات الألوهية، فهو رب كل الناس استدعاهم للوجود ويرزقهم؛ لأنها عطاءات الربوبية، أما من يلتحق بذات الإله لأنه إله فقط وإن أفقره، ويخلص الارتباط بخالقه، فإن الله يعطيه عطاءات من أسرار كونه. ولذا يقول الحق: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فحين تتقى تلتحم بالحق، فتكون فى دائرة فيوضات الحق، ولذلك فى هجرة الرسول ﷺ قال أبو بكر وهو فى الغار للرسول: «لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا» مشيرًا بذلك إلى الكفار،ولكن الرسول ﷺ يرد عليه أن هذا صحيح ظاهريا، وينقله إلى ملكوت آخر قائلاً: «ما بالك باثنين الله ثالثهما؟»، يعنى اطمئن لا أحد يرانا؛ لأننا فى معية الله الذى هو ثالثنا، والله لا تدركه الأبصار، فلن تدركنا أبصار الكفار.

وهكذا فعالم الملكوت هو الشىء الذى يغيب عنا وراء الأسباب، ولأن إبراهيم أوفى ما أمره الله به، فقد أطلعه الله على أسرار الملكوت، وكلما يأتى له شىء جديد يتيقن، وإبراهيم

كان حقا من الموقنين فى كل أدوار حياته؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك والأشياء، وأراه عواقبها، مثلاً لما أخذوه لطرحه فى النار، طبعًا الواحد فى مثل هذه الظروف يريد مَنْ يمد يده إليه لينجيه، فجاء جبريل يسأل إبراهيم: «أليس لك حاجة»؟ قال: «أما إليك فلا».

فقد علم أن النار حارقة بالذى خلقها وهو الذى يستطيع ألا يجعلها حارقة، فهذا يقين، لذا لم يكن الحظ السعيد أن ينجو إبراهيم من النار، وكان من الممكن ألا يمكنهم الله منه، ولكنه مكنهم منه؛ حتى لا يقولوا هرب منَّا، وكان من الممكن أن يرسل الله مطرًا يطفئ النار، ولكنه لم يفعل حتى لا يقولوا: «لو لم تنطفئ النار لأحرقناه»، ولكن إبراهيم لم يهرب ولم تُطفأ النار؛ليشاهد القوم الحقيقة التى عرفها إبراهيم مسبقًا، فكانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

وكما ابْتُلِىَ إبراهيم فى أول حياته بإلقائه فى النار، فقد ابْتُلِىَ فى نهاية حياته بتعريض ابنه الوحيد للذبح، والذى لم يأته إلا بعد أن كبرت به السن، وكان من الممكن أن يأمر الله غير إبراهيم بقتل ابنه، ولكن لا، بل هو الذى يذبحه بأمر الله ووحيه، وكان من الممكن ألا يستجيب إبراهيم عندما رأى فى المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، ولكنه يعلم أن رؤيا الأنبياء حق، ورضى بالقضاء فرفع

عنه، لذلك لو رأيت أحدًا طال عليه القضاء، فذلك لأنه لم يرضَ به؛ لأن الله لا يرفع قضاءه عن إنسان حتى يرضى به بقلبه لا بلسانه؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يلوى إرادة خالقه. لذلك رضى إبراهيم بقضاء ربه فى ذبح ابنه إسماعيل، ولم يرو أن إسماعيل عبر عن سخطه على أبيه فيحرم من الجزاء، وإنما قال:

﴿**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الصافات: ١٠٢]. لم يقل له افعل ما تريد، بل قال: ﴿**افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**﴾ ويكمل الحق ما حدث فيقول: ﴿**فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾**﴾ [الصافات: ١٠٣ - ١٠٧].

***

الجهاد والهجرة والحج

*** ما العلاقة بين الجهاد والفلاح فى قول الحق : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) ﴾** [المائدة: ٣٥].

يدعو الحق المؤمنين إلى الجهاد؛ لكى تكون كلمة الله هى العليا. والجهاد فى سبيل الله فيه الفلاح، إن لم تنتصر على عدوك استشهدت وما عند الله خير وأبقى، وهذا ما جعل أحد المجاهدين فى عهد الرسول ﷺ يقول وفى يده تمرات يأكلها: «ما بينى وبين الجنة إلا هذه التمرات»، فألقاها ودخل المعركة متعجلاً؛ لأنه وثق أن الحياة التى تنتظره فى الآخرة خير من الدنيا وما فيها.

ومن المعروف أن الجهاد لم يفرض فى أول الأمر فى الإسلام، وتأخرت الدعوة إلى الجهاد؛ لأن المسألة ليست انتحاراً، وإنما الجهاد إعداد واستعداد، وبذل للجهد، ليس ساعة المعارك فقط بل قبل المعارك، وذلك بالتربية الإيمانية أولاً، وأن تأخذ من منهج الله ما يحمى منهج الله.

والحق قد أمرنا بقوله: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾

[الأنفال: ٦٠] أى استعدوا بكل ما تملكون من وسائل القوة؛ حتى تأمنوا مكر أعدائكم وخداعهم، فلا تأمنوا عهدهم ومسالمتهم؛ لأن الغدر فى طبعهم؛ لأنكم أيها المسلمون إنْ أوقفتم تقوية أنفسكم واستعدادكم لعدوكم فى أى وقت، غدر بكم وانتهز منكم فرصة، وإنما اجعلوا أعداءكم يشعرون دائمًا أنكم تستعدون؛ مما يجعلهم يمتنعون عن حربكم.

فما الذى يمنع العالم من معركة عالمية ثالثة؟ إنه توازن الرعب، توازن الخوف بين القوى الكبرى، كل منها لديها قوة واستعداد يجعلها جميعًا تخشى بعضها ولا تجرؤ قوة على مهاجمة القوة الأخرى.

وكذلك يجب أن نكون كمسلمين على قوة واستعداد؛ تلبية لنداء الجهاد فى أى وقت، والجهاد يجب ألا يكون بقوة السلاح فقط، بل الجهاد بالكلمة وبالكتاب وبالكتيبة وبالسلاح؛ لأنه مطلوب أمة إيمانية متحضرة تأخذ بكل وسائل العصر فى جهادها ضد أعدائها.

*** ماذا يعنى قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً**

وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦].

إن الله قد فضل المجاهدين على القاعدين من أولى الضرر درجة، ولكن شاء عدل الله أن يتساوى أولى الضرر مع المجاهدين؛ لأنه لا ذنب لهم فى عاهاتهم ليحرموا هذه الدرجة، فاستحقوا بصبرهم على بلائهم أن يتساووا مع المجاهدين بصبرهم على الجهاد، في الثواب ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾، ثم أوضح الحق -سبحانه وتعالى- أن المجاهدين مفضلون على القاعدين من غير أولى الضرر ﴿ أَجْراً عَظِيماً دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ ويلاحظ أن الله لم يقرن جهاد المجاهدين بثمن، ولكن جعل لهم أجرًا عظيمًا وكل واحد يعطى على قدره. وعطاء الله فوق كل عطاء لمخلوق أجرًا عظيمًا، درجات منه ومغفرة ورحمة لهؤلاء المجاهدين، ولكن هل يستوى المجاهدون فى الدرجات؟ لا.. لأن هناك فرقًا بين الخروج من الوطن للجهاد وبين الجهاد نفسه. يقول الحق فى سورة التوبة: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ

أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

وقد عد الفقهاء درجات الجهاد فى سبيل الله سبعًا كما وردت فى الآيات السابقة وهى: الظمأ، والتعب، والمخمصة فى سبيل الله، ووطء حصون العدو، والنيل من العدو، والنفقة قلت أم كثرت فى سبيل الله، وقطع الوادى فى سبيل الله. فمن يأتِ بواحدة منها فله درجة من درجات الجهاد، ومن يقم بها كلها يحصل عليها كلها، ومن يقم بأربع يحصل على أربع، ومن يقم بست يحصل على ست. وهكذا فللمجاهدين درجات تختلف باختلاف نوعية جهادهم.

وإذا كان الحق حين رغب المؤمنين أن يكونوا مؤمنين مجاهدين لتكون كلمة الله هى العليا، فإنه إذا ما كان وتخلف أحد من المؤمنين عن الجهاد فى الصف الإيمانى فإنه يكون قد نفع نفسه بالإيمان، بعكس المجاهدين الذين ينفعون سواهم بالإيمان، والحق بهذا يريد أن يهيئ كل من مس الإيمان قلبه حتى لو كان فى مكان به كفار، يقول له تخلص من المكان الذى أنت فيه لتنضم إلى ركب المجاهدين وتشيع الإيمان فى سواك، وتحب الناس وتنفعهم بما تحبه وتنفع به نفسك، فإذا اعتذر بأنه لا يقدر

وضعيف لا يستطيع أن يهجر أرض الكفر ليؤدى واجبه الإيمانى، يقطع الله عليه كل حججه بأن أرض الله واسعة للهجرة، فيقول الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧]، تخاطب الملائكة ظالمى أنفسهم فى هذا الآية ﴿قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ﴾ عندما رضيتم بالبقاء فى أرض الكفر دون أن تهاجروا منها وظللتم فيها محبوسين بلا حركة نحو الهجرة للانضمام إلى موكب المجاهدين، فماذا يكون رد من ظلموا أنفسهم؟ يكون جوابهم ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ وقولهم هذا يفيد أن قومًا استضعفوهم، فلا يقدرون على الخروج؛ لأن الكفار «ماسكين لهم ذلة»، أو أنهم لا يعرفون طرق الهجرة.

ولكن كل هذه المبررات ليست كافية لتعوقهم عن الحركة ومحاولة الهجرة؛ فرارا بدينهم إلى أرض يأمنون فيها.

لذلك تؤنبهم الملائكة ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ فكون قوم استضعفوهم مسألة لا قيمة لها؛ لأن

الذى يمسكه مكانه ووطنه والذين حوله أصبحت ثقته بالأسباب لا بالمسبب الذى أرضه واسعة، فمن يضق به مكانه فليرحل إلى مكان آخر؛ لأنكم ببقائكم محبوسين فى أرض تقعدكم عن الجهاد فى صفوف المؤمنين والانضمام إلى ركبهم، فإنكم بذلك تنقضون قضية خلافة الإنسان لله فى الأرض. فما دام الإنسان خليفة الله فى الأرض فهو خليفته فى كل الأرض لا فى جزء من الأرض. فسبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ** (١٠)﴾ [الرحمن: ١٠].

ولكن الحق يستثنى المؤمنين المستضعفين بحق كالعجزة والنساء والولدان عن أن ينالهم عذابه؛ لأنهم لم يهاجروا، ثم قال الحق: ﴿**فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا** (٩٩)﴾ [النساء: ٩٩] .

وكان من المنتظر أن يقول الله إنه يعفو عنهم بدلاً من أن يعلق عفوه برجاء (عسى) ممكن أن يحدث أو لا يحدث، ولكن لذلك حكمة أرادها الحق سبحانه، وهى أنه يدلنا على أن مسائل الاستثناءات يجب على الإنسان أن يأخذها فى أضيق الحدود، ويقول الحق: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً**﴾ [النساء: ١٠٠].

فالهجرة يجب أن تكون فى سبيل الله. عندما لا يأمن المسلمون على دينهم يهاجرون إلى دار أمن، كما فعل المسلمون فى عهد رسول الله ﷺ عندما لم يأمنوا على دينهم فأمرهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة. ولماذا الحبشة؟ لأن الله قد بسط لرسوله كونه، فاستعرض قضية العدالة فى الكون فلم يجد إلا الحبشة؛ لأن هناك ملكًا لا يظلم عنده أحد كما قال ﷺ. والعدل فى ذاته وجوده فى أى مكان يجعله دار أمن وإن لم يكن دار إيمان. أما هجرة المسلمين إلى المدينة فهى هجرة إلى دار إيمان.

ولكن أهناك هجرة بعد ذلك وقد قال الرسول ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»؟ نعم هناك هجرة، فكما يقول الرسول ﷺ: «المهاجر من هجر ما حرم الله». وطلب العلم فى الأقطار هجرة، والحج هجرة، فكل هذه هجرات يقصد بها طاعة الله فيما أمر به، ويجب أن تكون هجرتك بنية سعة حركتك الدينية لا بنية سعة الرزق؛ لأنه مضمون. ولكن لماذا يهاجر الناس؟ لأنهم لا يريدون مجرد الرزق فقط، بل يطمعون فى أكثر من ذلك؛ لأن الرزق فى أى مكان أنت موجود فيه مضمون بضمان الله له. ولا تكون الهجرة إلا لتجد مجالاً أوسع لطاعة ربك ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةً**﴾ [النساء: ١٠٠]،

فما معنى «مراغمًا»؟ أصلها «الرغام» أى «التراب» فيقال «رغم أنفه» أى ذهبت أنفه إلى الترب باعتبار أن الأنف هى المكان البارز المرتفع موضع عزة الإنسان والأنفة والعلو. لذلك حينما توعَّدَ الله أبا جهل بالذل، توعده به فى أنفه، فقال : ﴿**سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ** ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١٦]، والله يريد أن يقول: من يهاجر فى سبيلى سييسر الله له الهجرة إلى مكان يأمن فيه، بحيث يأمن من مكان كان فيه مستضعفا بالأمس، ويستطيع اليوم أن يذل من كان يستضعفك إلى درجة أن تجعل أنفه فى التراب، وهذا تشجيع على الهجرة وسعة فى أنه ما دام المكان الذى هاجرت منه قد ضيق حركتك، فالمكان الذى هاجرت إليه سيوسع حركتك، ثم يقول الحق: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ١٠٠] وقد نزلت الآية فى «ضمرة بن القيس» من أهل مكة وكان مريضًا، فلما سمع ما أنزل الله فى الهجرة قال لأولاده: احملونى، فإنى لست من المستضعفين وإنى لأهتدى الطريق، والله لا أبيت الليلة بمكة. فحملوه على سرير، ثم خرجوا به، فمات، فأنزل الله هذه الآية ليقول: يا من خرجت ناويًا الهجرة إلى دار أمن وهى سبب لأن تذل منها عدوك ثم مت

قبل أن تصل إلى السبب، فإنك بموتك قد ذهبت إلى رب السبب، وهذا أفضل لك وقد وقع أجرك على الله، تجده قد سقط لك عنده، فكأن الجزاء أحرص عليك منك عليه ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾ لما قد تكونون قد توانيتم فيه إن قصرتم ثم تتداركون ما فاتكم.

* * *

معجزات الهجرة

*** ما هى قصة التأريخ بالهجرة؟**

الشائع عند الناس أنهم يحتفلون بالمحرم؛ لأن الهجرة ربما تكون وقعت فيه، ولكن الحقيقة أن الهجرة وقعت فى ليلة الثامن والعشرين من صفر، فقد خرج الرسول ﷺ مع صديقه أبى بكر إلى الغار يوم الجمعة ومكثا إلى يوم الاثنين، فظلا فى الغار ثلاثة أيام، ثم سارا حتى وصلا «قباء» فى يوم الاثنين الثامن من ربيع، وظلا فى قباء أربعة أيام، ثم ذهبا إلى المدينة، فوصلا يوم الجمعة. وبذلك استغرقت الهجرة أسبوعين تقريبًا.. هذا هو التاريخ الزمنى لحادث الهجرة.

ولقد وقعت فى غير أول الشهر، فليس من المعقول أن نلوى الناموس لنجعل الهلال يبدأ فى الثامن والعشرين من صفر حيث وقعت الهجرة، فجعلوا التأريخ بالهجرة لا يبدأ من شهر صفر حيث كانت الهجرة، وإنما جعلوا التأريخ يبدأ بالعام الذى فيه الهجرة، وظلت السنة عربية كما كانت.. بدايتها المحرم وآخرها ذو الحجة، ويسير التوقيت مع الهلال، ولذلك كان لابد أن نؤرخ

لا لحدث الهجرة فى ذاته وإنما العام الذى حدثت فيه، وهنالك قصة.. فقد عرض على عمر بن الخطاب كتاب ومحله فى التاريخ «شعبان» فقال عمر: أى شعبان هذا؟ أشعبان هذا أم شعبان العام الذى مضى؟ أم الذى يليه؟ ضعوا للناس أمرًا يعرفونه. فوقف للناس وقالوا: ماذا نصنع؟

فقال بعضهم: نؤرخ بالرومان، وقال آخرون: نؤرخ بالفرس.

وروى أن عليا ـ كرم الله وجهه ـ قال: نؤرخ بخروج محمد ﷺ من دار الشرك إلى دار الإيمان، فوافق عمر والصحابة على ذلك. وكان ذلك بعد سنتين ونصف من خلافة عمر. وانسحب هذا التاريخ على الماضى، فحسبوا المدد منذ السنة التى هاجر فيها الرسول ﷺ، وجعلوا يؤرخون لحدث فى السنة الأولى للهجرة، والآخر فى السنة الثانية.. وهكذا إلى ما نحن فيه الآن.

فإذا جئنا للحديث عن حدث الهجرة ذاته نجد أنه كان مقررًا منذ بعثة محمد ﷺ. فحين بعث وأرسل إليه كان تصديق بعثته مقرونًا بأنه سيهاجر، ولا أدل على ذلك من أن ورقة بن نوفل حين عُرض عليه أمر محمد وما يجىء له، قال: «إنك لنبى هذه الأمة، وإن الذى يأتيك لهو الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى، ولتكذبن، ولتعذبن، ولتخرجن، ولتقاتلن، ليتنى أكون

حيا إذ يخرجك قومك».

قال الرسول ﷺ: «أو مخرجى هم؟»

قال: «ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودى. وإن يدركنى يومك، أنصرك نصرًا يعلمه الله».

فاقتران البعثة بقوله «لتخرجن» وقول الرسول ﷺ «أو مخرجى هم؟» يدل على أن الهجرة حدث خطير، تتعرض له الدعوة، لتؤتى أكلها كل حين.

والهجرة كحدث تاريخى لا يمكن أن يكون منفصلاً عما سبقه من الأحداث، ولكنه كان نتيجة حتمية لما سبقه من الأحداث. وارتباط البعثة المحمدية بكل أحداثها يدل على وحدة البعثة فى كل ما يعن لها.

*** ما هى معجزات الهجرة ودلالاتها؟**

- إذا نظرنا إلى ما تخلل الهجرة من صعاب ومشقات ومن آيات ومعجزات، قد يقف العقل منها موقف التردد فى قبولها، فإنه يجب أن يعلم الناس أن ما تخلل الهجرة من معجزات وكرامات إنما كان من غير صنع البشر.

وإذا رفعنا الأحداث إلى مستوى صنع الله وقف العقل

صاغرًا، فمثلاً العنكبوت والحمامة والغصن وجدت من أجل محمد وصاحبه أبى بكر لتضليل الكفار عنهما فى الغار، مما يجعل أحدهم يقول بعدم إمكانية وجود محمد فى الغار وإلا لتقطع خيط العنكبوت وطارت الحمامة،وتكسر الغصن. ورغم أن أبا بكر كان قلقًا مما يدل عليه قوله: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فإن الرسول ﷺ كان يطمئنه؛ لأنه مطمئن إلى أنه رسول ﷺ ولن يخذله الله أبدًا، فقال لصاحبه: ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ فلا تحزن إن الله معنا.

ومعنى أن «الله معنا» أن الكفار ولو كانوا مبصرين سيعميهم الحق عن رؤية محمد وصحبه.

وإذا نظرنا مثلاً إلى «سراقة» الذى كلفه الكفار بمتابعة محمد للقبض عليه، فيشير الرسول ﷺ إلى أسفل، فتنغرس قدما فرس سراقة لأكثر من مرة؛ مما يجعله يوقن أن محمدًا بعيد عنه وإن كان قريبًا منه.

وانظر إلى يقين الرسول ﷺ فى هذه الظروف التى خرج فيها مضطرا، يطارده الكفار، وانظر إليه يعد سراقة بسوار كسرى عوضًا عن المكافأة التى وعده بها الكفار إذا أتى بمحمد ﷺ، فكيف يعد سراقة بسوار كسرى فى مثل هذه الظروف التى لا

يملك فيها من أمره شيئًا؟! وتتحقق نبوءة الرسول ﷺ فلا يموت سراقة حتى تفتح بلاد فارس، ويدق المسلمون عرش كسرى فى عهد عمر بن الخطاب، ويأخذ سراقة سوار كسرى كما وعده به الرسول ﷺ.

فأى يقين هذا الذى يجعل الرسول يعد بما لا يملك! إنه يقين النبوة، يقين أنه إذا قال أوفى بقدرة الحق الذى أرسله رسولاً. وانظر مثلاً إلى حكاية أم معبد التى استضافت الرسول ﷺ والشاة التى عندها عجفاء لا تنتج اللبن، فتناول الرسول ﷺ ضرعها، فتدر لبنًا يكفى أهل البيت جميعًا ويفيض.

وانظر أيضًا إلى دليل الرسول ﷺ وصاحبه فى رحلة الهجرة وهو «عبد الله ابن أريقط». لقد كان هذا الدليل كافرًا، وأن يكون دليل محمد فى رحلة الهجرة كافرًا أليس هذا تسخيرًا من الله لكافر ليخدم قافلة الإيمان؟!، أو ليس ذلك بمعجزة؟!

كل ذلك يكون أمرًا مسلمًا عند المؤمن برب محمد، وفى ذلك مصداق لقول تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فأى شىء من هذه الأشياء يدخل فى كلمة ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أى بمقاييسكم وبعقولكم وبماديتكم.

وإذا كانت مثل هذه المعجزات قد شهدها وعرفها من عاصروها، فإن المعجزة التى تتبع كل عصر شاهدًا للرسول ﷺ على أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وهى القرآن الكريم؛ لأنه معجزة عقلية باقية.

وكل المعجزات الكونية تحدث مرة وتنتهى، أما معجزة محمد فنظرًا لخلود رسالته، كانت معجزة عقلية، حيث يستطيع كل مؤمن به أن يمسك بالمصحف ويقول: هذه معجزة محمد ﷺ ومعجزة الإسلام من بعده، أما بقية المعجزات الكونية التى حدثت ورآها من رآها فإنه يصدق بها، ومن لم يرها فحسبه أن يصدق فى القرآن وحده معجزة له، وإن اتسع عقله لقدرة الله - الذى خلق محمدًا - على خرق الناموس له، فلعل ذلك من تثبيت الله للمعاصرين للرسول وليس تثبيتًا لنا نحن، فلم يعد إلا خبرًا يروى، اقتنع به إذا وثقت بمن رواه، ولكن لا تلغ عقلك؛ لأن عقلك مستعمل فى القضية الأولى، وهى الإيمان بوجود إله واحد، والإيمان بضرورة التبليغ من رسول صادق، صاحب معجزة تدخل العقل، فإذا ما انتهيت إلى هذا القدر يكفيك أن تعلم أنه قال كذا وكذا.

وإذا كانت قد حدثت معجزات كونية فى عهد الرسول ﷺ تثبيتًا للمؤمنين، وتدليلاً على نبوة محمد وأنه رسول لمن

عاصروه، فقد جاء القرآن معجزة للناس كافة إلى يوم القيامة؛ لأنه ليس من المعقول أن يأتى لكل المعاصرين فى كل عصر بآية كونية، فلا بد من آية باقية، وهى القرآن.

وكل مسلم فى كل عصر يستطيع أن يقول: محمد رسول الله ومعجزته القرآن معجزة للعرب الذين نزل بينهم وبلغتهم، ومعجزة للمسلمين من كل لغة وجنس ولون، ومعجزة لغير المسلمين فى كل وقت.

فترك الحق فى القرآن معجزات لا تنقضى إلى يوم القيامة؛ لأنها معجزات كونية يكتشفها العلم يوما بعد يوم.

ومن العظمة أن يكتشفها ويستنبطها غير المؤمنين بالقرآن.

فمثلاً قديمًا قالوا: إن مكان «الحس» فى المخ، وبعد ذلك قالوا «الحس» فى النخاع، حتى اكتشف الألمان أن الجلد هو مركز الإحساس بالألم عن طريق شعيرات تنبطح على الجلد، وإن الإنسان مثلا يتألم بالحقنة بمقدار ما تصل الحقنة إلى داخل الجلد.

هذه الحقيقة سبق بها القرآن حينما ذكر عن عذاب الكفار **﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾** [النساء: ٥٦]، فكأن محل العذاب هو «الجلد» كما ذكر القرآن.

وعندما قال القرآن إن الله خلق الإنسان من طين، اكتشف العلماء بتحليل الطين أن به «١٦» عنصرًا، وأن جسم الإنسان أيضًا به «١٦» عنصرًا، هى نفس عناصر الطين.

ولما ذكر القرآن ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] واكتشفوا «الذرة» ولما فتتوها ووجدوا أن هناك أصغر منها «الإليكترونات والنيترونات»، قال السطحيون: القرآن ذكر أصغر شىء وهو «الذرة»، والعلم اكتشف أصغر منها، وهم لم يفطنوا إلى أن القرآن قال: ﴿**وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ**﴾ [يونس: ٦١] فلا يمكن أن تتناقض حقيقة كونية مع حقيقة قرآنية؛ لأن خالق الكون هو نفسه الذى أنزل القرآن، ولا يمكن أن يتناقض الحق فيما خلق وأنزل إلا فى أذهان السطحيين وضيقى الأفق.

وتبقى الأحداث التى وقعت فى عصر الرسول ـ كحادث الهجرة ـ أحداثًا تاريخية لها أثرها فى تاريخ الدعوة الإسلامية وانتقالها من مرحلة إلى أخرى، بينما يظل القرآن معجزة مستمرة بآياته التى تثبتها حقائق الكون التى يكتشفها علماء من غير المسلمين.

وبذلك يثبت قول الحق ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي**

أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

* * *

الفصل الثاني

من قال لا إله إلا الله
دخل الجنة
وإن زنى وإن سرق

من قال لا إله إلا الله
دخـــل الجـنة
وإن زنـى وإن سرق

(حديث شريف)

إن الرسول يضع حدا فاصلاً بين من آمن بوحدانية الخالق ومن كفر بتلك الوحدانية، وإلا فماذا يكون الفرق بين من قال: لا إله إلا الله واعتقدها وآمن بها، وبين من لم يقلها ولم يعتقد بها أو يؤمن بها؟ فمن آمن بأن لا إله إلا الله - مهما ارتكب من جرائم - فإن الله غفور رحيم؛ لأن كل جريمة جرمها الله وضع لها عقوبتها، وهذا دليل على أنها يمكن أن تحدث.

الشيخ الشعراوي

عالمية الإسلام

لما كان المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس فى الأرض منذ خلقها الله، وكان هو منطلق الدعوة الإسلامية وكل إقامة رسول الله ﷺ، فقد كان من المنطقى أن يبدأ الله إسراءه بعبده منه، ولكن لماذا كان منتهى الإسراء وبداية المعراج من المسجد الأقصى؟ وهل كان المسجد الأقصى مسجدًا بالمعنى المفهوم الآن؟

ـ لقد جاء «السجود» فى كل رسالات السماء إلى الأرض، وقد كان يستعمل كوصف اشتقاقى على مكان السجود، وأصبح فى الإسلام علمًا على المكان الخاص بالسجود، وقد استخدام المسجد الأقصى كمسجد قبل الإسلام؛ بدليل قول الحق لمريم: ﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣].

وفى قصة أهل الكهف يقول الحق فيما يرويه عن الذين عاصروهم: ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ [الكهف: ٢١]، فكلمة «المسجد» لم تأتِ مع الإسلام، بل هى موجودة فى الرسالات

السابقة، وكل مكان يسجد فيه يكون مسجدًا. كما شاع استخدام الكلمة فى الإسلام فى الأماكن محل الصلاة والسجود، ولأن المسجد الأقصى له قدسية مع موسى وعيسى وأنبياء بنى إسرائيل، فإن إسراء الله بعبده «محمد» له دلالة على أن الإسلام يشمل جميع الأديان السابقة ويهيمن عليها مكملاً لها ومتمِّمًا، وهو دين للناس جميعًا كآخر رسالات الحق إلى البشر إلى يوم القيامة.

فهو دين لا يخص العرب فقط، بل هو دين عالمى، فجاء حدث الإسراء إلى بيت المقدس ليؤكد هذه الحقيقة، وليدخل بيت المقدس ضمن مقدسات الدين الإسلامى الجديد، كدليل على أن الإسلام يمتد إلى كل مكان وكل المقدسات، ومنها المسجد الأقصى، لذلك كانت دلالة توجيه الله لرسوله والمسلمين بأن يتوجهوا إلى المسجد الأقصى ليكون قبلتهم الأولى؛ تأكيدًا على أن الإسلام ليس دين قريش فقط الذين بعث فيهم «محمد». صحيح أن الإسلام جاء فى مكة لكنه مهيمن على سائر الأديان، وكتابه القرآن مهيمن على سائر الكتب السماوية، ورسوله مهيمن على كل الرسل والأنبياء قبله، ولذلك كانت البشرى به فى التوراة والإنجيل والزبور تطلب من أصحاب هذه الكتب أن يؤمنوا به وبدين الإسلام الذى بعثه الله ليمتد بنوره إلى كل الدنيا، وكل المقدسات المرتبطة بأديان السماء، فكان المسجد الأقصى هو الرمز

الذى يؤكد هذا المعنى حينما جعله الحق منتهى مسرى رسوله وبداية معراجه ﷺ، كما جمع الحق أنبياءه ورسله السابقين ليلتقوا بمحمد تأكيدًا على أن رسول الإسلام هو خاتم الأنبياء والمرسلين الذى جعله الله إمامًا لهم فى الصلاة بالمسجد الأقصى.

***

قدسية الصلاة

*** كيف صلى الرسول إمامًا بالأنبياء والمرسلين رغم أن الصلاة لم تفرض عليه إلا بعد المعراج؟**

ـ الصلاة موجودة مع كل رسول وعند اتباع كل رسول، ولكن الصلاة بشكلها الإسلامى النهائى هى التى فرضها الله على رسوله وأمة رسوله لتجتمع فيها كل مزايا صلوات أمم الرسل السابقين، وآيات القرآن تدل على وجود الصلاة قبل الإسلام وإن اختلف شكلها، فيقول الحق لإبراهيم عليه السلام: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [الحج: ٢٦] ويقول الحق على لسان خليله إبراهيم عليه السلام أيضًا: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ [إبراهيم: ٣٧] ، فكأن هناك صلاة عند الأمم السابقة، فيكون مفهومًا إذن أن الرسول صلى بالرسل والأنبياء فى المسجد الأقصى صلاة علمها الله له، وإن لم تشبه الصلاة الإسلامية التى فرضها الله على أمته فى نهاية رحلة المعراج.

* لماذا لم يكن للصلاة عذر فى عدم أدائها كبقية الفروض؟

ـ فى أى حال كنت فى هجرة أو حرب فلابد من الصلاة، وتقصرونها لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ **فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴾ [النساء: ١٠١] وعدم استثناء الله للصلاة بأى عذر من الأعذار دليل على قدسيتها التى لا يعدلها أهميةً أى ركن من الأركان الخمسة؛ لأنها تضم كل الأركان الخمسة، ففيها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والصوم وإن كان هو الامتناع عن شهوتى الفرج والبطن فإنه ليس مانعًا لك عن الكلام والحركة والجرى، فيكون معنى الصيام فى الصلاة أكبر وأوسع، وإذا كانت الزكاة هى استقطاع جزء من مالك الذى حصلت عليه نتيجة الوقت الذى بذلت فيه عملا وجهدا، فإنك فى الصلاة تستقطع جزءًا من وقت العمل لتؤديها، فتكون قد زكيت بالأصل، وفى الصلاة حج أيضًا؛ لأنك تتجه بوجهك نحو الكعبة. لكل هذه الميزات اختلفت الصلاة عن بقية الأركان فى منزلتها، فلم تفرض بواسطة الوحى، بل بالمباشرة بين رب محمد ومحمد، فلا يوجد أى شىء يمكن أن يشغلكم عن الصلاة؛ حتى فى السفر والحرب، فأنتم أحوج ما تكونون فيها إلى الالتحام مع ربكم من أى وقت آخر، وليس عليكم حرج أن

تقصروا الصلاة، حتى لا تدعوا فرصة للعدو أن يتمكن منكم، وبدلا من أن تكون الصلاة أربع ركعات اجعلوها اثنتين، وبدلاً من أن تكون ثلاث ركعات اجعلوها ركعتين، ولو كانت ركعتين فهى ركعتان ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٢] فالطائفة الأولى التى صلَّتْ مع النبى قال لهم الله: خذوا أسلحتكم، أما الطائفة الثانية فقال لهم: خذوا أسلحتكم وحذركم؛ لأن الطائفة التى لم تصلِ بعد ستكون مشغولة بعملها للحراسة ومشغولة بنفسها وذواتها للصلاة مع النبى، فيقول الله لهم: خذوا حذركم وأسلحتكم. والأسلحة شىء مادى يمكن أخذه، ولكن كيف يؤخذ الحذر وهو عملية معنوية؟ إن الحق يجسم المعنويات كماديات؛ حتى لا نغفل عنها، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ [الحشر: ٩] فالدار مكان يُتبوأ، ولكن كيف يتبوأ الإيمان؟ يكون فلأن الإيمان المرجع إليه كله؛ فقد جعله الله كأنه مكان يتبوأ لنتخيله شيئًا مجسمًا لا تغفل عنه أبدًا. ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] والغفلة هى نسيان طارئ لما لا يستحق أن ينسى، فالخوف أن تغفلوا عن أسلحتكم وأمتعتكم؛ لأن فى فقدها قوة

لأعدائكم ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢] أى هجمة واحدة فتقصر المعركة ولا تطول، ثم يقول الحق: ﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] كررها الحق كثيرًا، ولكن إذا كنت تأخذ بالأسباب «الحذر» فلا تغفل عن المسبب ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢] ويقول الحق: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣] فالله ينبه المؤمنين أن يذكروا الله فى كل حال وعلى كل حال. فإذا كنتم فى حالة الاشتباك مع العدو، وجاء وقت الصلاة؛ فاذكروا الله: «سُبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله». وقد تكون حالة الاشتباك مع العدو عذرًا كافيًا، ولكن الفقهاء قالوا: يجب أن تشعر قلبك ونفسك أنك فى وقت لقائك مع ربك وأنت أحوج ما تكون إليه ولا تحرم نفسك من تجليات وجه الله. وقد يقول البعض لننتظر بعض الوقت لنخلص مما فى أيدينا، ولكن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا، فالظهر موقوت إلى العصر مثلاً، ولكن هل تضمن لنفسك أن تعيش إلى العصر؟ «إنك يجب أن تصلى الصلاة فى موعدها وتترك ما بيدك؛ لأن

كل عمل مع الأذان باطل».

*** ما المرادات الإلهية من اجتماع المصلين فى المسجد فى كل صلاة؟**

ـ مع خلع المصلين لأحذيتهم فإنهم يخلعون أقذارهم خارج المسجد مع نعالهم، فمن له رئيس «متعنطز» عليه ويجده معه فى نفس المسجد يتقرب إلى الله، فإنه يرتاح نفسيا أنه تساوى معه أمام الله، فهى لحظة استطراق عبودية، حتى لو لم نجتمع كل يوم، فإن الحق يأتى بنا جميعًا يوم الجمعة؛ ليتم هذا الاجتماع الذى ليس فيه أحد رئيسًا لأحد، وإنما كلنا أمام الحق سواء.

ورغم أن الحق قد خلق الكون وسخره لنا، فإننا نستطيع أن نقابله فى أى وقت بالصلاة، ولكنك عندما تريد أن تقابل شخصية كبيرة ذات منصب كبير، فإنك تبعث إليه التماسًا لينظر فيه، إما أن يوافق عليه وإما لا يوافق، وإذا وافق عليه يسألونك ما هو الموضوع الذى تريد أن تتحدث فيه، وتكون المقابلة كذا دقيقة، ولو أطلت الحديث يقف الشخص الذى أنت قابلته بما معناه أن المقابلة انتهت.

إنما ربنا يقول لنا: قابلونى فى أى وقت وفى أى مكان، ولن أملَّ حتى تملُّوا، وأنتم يا عبادى تنهون المقابلة كما تريدون.

والشاعر يقول:

حسبُ نفسى عزا بأني عبدٌ   يحتـفي به بلا مواعيد ربي

هو في قدســه الأعز يلاقي   لكنى ألقاه متي وأين أحب

لذلك تجد الصلاة فيها كل فضائل الدين والمجتمع، لذا دعانا الحق إلى المحافظة على الصلاة، وأعفانا من كل الفرائض زكاة وحجا وصيامًا إذا لم نكن قادرين عليها، ما عدا الصلاة، فلا عذر فى عدم أدائها، فإن لم تستطع الصلاة قائمًا فلتصل جالسًا، وإن لم تستطع فلتصل مضطجعًا أو نائمًا، وتجرى طقوس الصلاة على شفتيك وجوارحك.

*** لماذا للصلاة كل هذه الأهمية؟**

ـ هذه الأهمية للصلاة؛ لأنها تتضمن كل الفرائض الخمس كما ذكرت لك، ثم إنها هى الصلة اليومية بين العبد وربه فى اليوم خمس مرات، ولهذه الأهمية التى للصلاة لم يفرضها الحق إلا من فوق سبع سموات ليلة الإسراء والمعراج؛ لأن كل الفروض أوحى الله بها إلى رسوله ﷺ عن طريق الوحى بواسطة جبريل - عليه السلام - ما عدا الصلاة التى استدعى من أجلها الحق رسوله كهدية إلى أمة محمد إلى يوم القيامة، لذلك أوضح الرسول أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة هى الصلاة، فإذا

صلحت صلح باقى عمله، وإذا فسدت فسد باقى عمله؛ لأنه مع عدم قدرتك على أداء بقية الفروض ـ كأن تكون مريضًا غير قادر على الصيام، أو فقيرًا غير مستطيع الزكاة أو الحج ـ فإنه لا يتبقى لك كمسلم إلا الصلاة، وإلا لو لم تُصل فماذا بقى من مظاهر إسلامك واتصالك بربك؟ لا يوجد إلا الصلاة التى هى الفارق بين المسلمين وغيرهم ممن لا دين لهم، فمن أقامها أقام الدين، ومن تركها فقد هدم الدين.

*** هل معنى ذلك أن المسلم بالاسم فقط دون أن يؤدى ما أمره الله ـ تعالى ـ به خاصة الصلاة، يكون متساويًا فى جزائه مع الكافر؟**

ـ يقول الشيخ الشعراوى: حينما يقول الحق: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨]، وعندما يقول الرسول ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، فإن الله ورسوله قد استثنيا من رحمة الله وغفرانه من أشرك بالله.. لماذا؟ لأن هذه مسألة تعدت إلى مرتبة الخيانة العظمى، وهى الشرك بالله، وهذه أخذناها من القوانين الوضعية التى لا يكتبها واضعوها بنية تأكيد قضايا دينية أو إثباتها، ولكن غفلتهم تؤكد القضايا الدينية، فنرى أن واحدًا قام بحركة، وأراد آخر أن ينقلب عليه، فيسمون هذه «خيانة عظمى». إنما لو كان

«بيهلب» أو يقوم «بتزوير»، أو «يسرق»، يمكنهم أن يتغاضوا عنه، ولكن عندما يقوم بعمل يتعارض مع السيادة يقطعون رقبته، كذلك ـ مع فارق المقارنة ـ الإيمان بأنه لا إله إلا الله، هو أصل العقيدة الإيمانية، ومن أنكرها أو تعداها فقد انتهى أمره بالنسبة إلى الله ودخل دائرة الشرك التى لا غفران لها أبدًا؛ لأن الذى يريده الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو أن يعرف الإنسان أن الله هو الواحد الأحد الذى لا شريك له،وذلك هو أساس العقيدة الإيمانية، «الوحدانية» التى هى حصن الإيمان، مما يوضحه الحديث القدسى الذى يقول فيه الحق: «لا إله إلا الله حصنى، ومن دخل حصنى أمن عذابى».

ويقول ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة». وكان أبو ذر الغفارى حاضرًا، فقال: «وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟» فيقول ﷺ: «وإن زنى وإن سرق». فيعيد أبو ذر سؤاله للرسول ﷺ متعجبًا: «وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟!» والرسول يؤكد له ما قاله. ولما كرر أبو ذر سؤاله للمرة الثالثة،قال له ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق، رغم أنف أبى ذر».

والحقيقة أن «أبا ذر» لا يؤذيه ذلك ولا يحزنه، ولكن القضية عنده هى «الغيرة الإيمانية»، لهذا حينما كان «أبو ذر» يروى هذا

الحديث يقول: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق، رغم أنف أبى ذر» ويشير إلى نفسه.

***

فلسفة هذا الحديث النبوي الشريف

إن الرسول يضع حدا فاصلاً بين من آمن بوحدانية الخالق من كفر بتلك الوحدانية، وإلا فماذا يكون الفرق بين من قال «لا إله إلا الله» واعتقدها وآمن بها، وبين من لم يقلها ولم يعتقد بها ولم يؤمن بها؟

فمن آمن بأن لا إله إلا الله، مهما ارتكب من جرائم، فإن الله غفور رحيم؛ لأن كل جريمة جرمها الله ووضع لها عقوبة. وهذا دليل على أنها يمكن أن تحدث، فعندما يقول: «اقطعوا يد السارق وارجموا الزانى» فهذا معناه أن الله أجاز أنه من الممكن للمؤمن أن تأخذه الغفلة ويرتكب مثل هذه الجرائم، لذلك يقول رسول الله ﷺ: «لا يسرق السارق وهو مؤمن، ولا يزنى وهو مؤمن»، ولكنها غفلة عن الإيمان تجعل المؤمن ينحرف إلى المعصية وارتكاب المحرمات.

لذلك فإن الله يفتح باب التوبة، فيقول ﷺ: «الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما». إنها فرص هائلة

«وأوكازيونات» متعددة للتوبة والاستغفار، وهذا من رحمة الله؛ لأنه لو كان الله يأخذ العاصى بأول ذنب يرتكبه ويقفل باب التوبة عنه، فماذا سيكون الحال؟

سيتحول العاصى إلى ما يسمونه «فاقد»، يطلق نفسه لارتكاب الجرائم، واقتراف المحرمات، مما يفزع المجتمع ويقلقه، ولكن لما ربنا يفتح أبواب التوبة ويوسع منافذها، فهو بذلك يكون رحيمًا بالعاصى، ورحيمًا بالمجتمع؛ لأنه ينقذ العاصى من مستنقع المعصية، ويفتح باب الأمل دائمًا أمام كل مذنب أو عاصٍ.

يقول ﷺ: «إن الله ـ تعالى ـ يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

كما فتح الحق باب التوبة حتى نهاية أجل كل إنسان من الدنيا، فيقول ﷺ: «إن الله - عز وجل - يقبل توبة العبد ما لم يغزغر». أى أن توبة العبد مقبولة حتى قبيل خروج روحه، إذن فكل ذنب مغفور بتوبة العبد إلا الشرك بالله فلا مغفرة له؛ لأنه كما حكم الحق ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ [النساء: ٤٨].

وعندما يقول الحق لنا: «أشهد أنه لا إله إلا أنا» فهذه قضية

ليست لصالحه، إنما لصالحكم أنتم؛ حتى لا تتعدد الآلهة من البشر فيخضعك كل قوى لسلطانه. ولكن الله يقول لك: اخضع لواحد فقط يكفيك كل الخضوع لأى أحد؛ لأنك إن آمنت بوحدانية الله، فالإيمان يعلمك العزة، وبدل أن تنحنى لكل ذى قوة، اجعل ظهرك مسنودًا بـ «لا إله إلا الله»، فهذه الوحدانية لمصلحة البشر لا لمصلحة الحق؛ لأن الله لا يريد من خلقه شيئا؛ فهو غنى عنهم.

فقد خلق الكون كله بصفات قدرته وكماله، فلم تنشأ له صفة بوجود البشر، وإنما هو الذى أوجدهم بصفات كماله وقدرته، لذلك فليكن اتجاهك لوجه واحد يكفيك كل الأوجه، واتجاهك إلى إله واحد يكفيك كل المتألهين من البشر.

فعندما يطلب الله من عباده المؤمنين أن يجتمعوا كل أسبوع مرة لصلاة الجمعة، فهو يريد لزوم الاجتماع.. لماذا؟ لأنك قد تصلى فرضًا فى مزرعتك أو مصنعك أو بيتك أو فى مكتبك أو مدرستك أو فى أى مكان، فتذل لله فيما بينك وبينه، ولكن الله يريد تذللك له أمام كل الناس؛ لأجل أن فلانًا أو علانًا الذى تراه فى قوته وجبروته وتعاليه تنمحى من نفسك خشيته أو الخوف منه بعد أن رأيته ساجدًا مثلك ذليلاً ضعيفًا أمام الله.

وفى موسم الحج كذلك يجتمع الوزير مع الخفير والسيد مع العبد، فيستوى الجميع فى العبودية؛ حتى لا يعمل واحد من نفسه إلهًا، وإلا تعدد الشركاء، ففسد الأمور، إنما صلاح الكون لا يكون إلا بوجود إله واحد تأتمر بأمره، فلا تكون سيادة ولا عبودية لأحد على أحد، وإذا كان الله يغفر الذنوب جميعًا إلا الشرك به، فعلينا ما دام الإنسان قد أذنب واستغفر ألا تذكره بذنبه وتعايره به وتجعلها ذلة له؛ لأنه ما دام قد تاب فقد قبل الله توبته؛ لأنه ـ سبحانه ـ هو الذى يملك التوبة ويملك المغفرة، فلماذا تجعله مذنبًا عندك أنت أيها الإنسان؟ فلا تحتقر المسرفين على أنفسهم ولا تجعل لهم أثرًا رجعيا فى الذلة بما ارتكبوه من ذنوب وجرائم تابوا عنها؛ فأنت لست إلهًا، إنما هو الله إله واحد غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا.

* * *

حكمة الاختيار

*** ما هى الحكمة من جعل الإنسان مختارًا فى طاعته وعصيانه أو كفره وإيمانه؟**

ـ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما خلقنا جعل لنا حرية الاختيار أن نكون مؤمنين أو غير مؤمنين، وجعل مكوناتنا صالحة لأن نفعل الشىء ونقيضه، ولذلك عندما يقول : صَلِّ، فأنت صالح لأن تصلى أو لا تصلى، أو يقول لك: لا تشرب الخمر، فأنت صالح لأن تفعل أو لا تفعل. ومصيبتك الكبرى تنشأ حينما تنقل أمر ربك بافعل إلى منطقة لا تفعل، أو تنقل لاَ تفعل إلى منطقة افعل، وساعة تركك مختارًا أعطاك المنهج لتلتزم به لتجعل اختيارك دائمًا فى الخير وفى اتجاه الخير، فمثلاً لو أعطاك والدك مبلغًا من المال وترك لك حرية الاختيار فى شراء ما تشاء من السوق، فذهبت واشتريت «ورق لعب» فيغضب والدك؛ لأن هذا فعل غير محبب له، وكذلك الحق ـ سبحانه ـ يغضب حينما جعل لك حرية الاختيار فتختار مخالفة منهجه المحبوب له، فتكون بذلك قد عصيته، ولا تظن أنك بفعلك المعصية قد فعلتها «بفتونة» ولكن «ببجبحة» اختيارك الذى هو لك، وقد تسأل: إذن

فلماذا العذاب وقد جعلنا الله مختارين، وإلا فلو شاء لنزع منا حرية الاختيار؟

ذلك لأنك وجهت آلة الاختيار لما هى صالحة له فى غير محبوب الله، فالسكين تستطيع أن تذبح بها دجاجة، وتستطيع أن تذبح بها إنسانًا، فهى أداة جريمة وهى أداة وليمة، وأنت أيها الإنسان الذى له حرية الاختيار لم تفعل إلا من باطن خلق الله لك مختارًا ولكن هل الله ألزمك؟ إنه فقط قال لك: هذا طريق أحبه، وهذا طريق آخر لا أحبه لك، وأنت تختار الشىء النافع فترضى الله، أو تختار الشىء الضار فتغضب الله. والحازم الفاهم هو الذى لا يأخذ حرية الاختيار على إطلاقها ليحقق شهواته؛ لأنه يجب أن يعلم فى النهاية أن الأمر مردود إلى من أعطاه حرية الاختيار ليحاسبه عليه، فتنبه إلى احترام هذا الاختيار وأنه لا إله إلا الله، فلا يوجد إله آخر يتدخل ليقول لك عكس ما قاله الله، بل هو إله واحد، لذلك عندما يقول: ﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ** (٣٥) ﴾ [الطور: ٣٥] . فلا أحد قالها ولن يقولها أحد.

والحق حينما يطرح سؤالاً لا يريد أن يجعل القضية خبرية، إنما يريد أن يجعلها من المسئول نفسه؛ لأن الله واثق أن الإجابة وفق ما يريد، وأنه إذا صدق وإذا وعد أو توعد لا يستطيع أى

كائن فى الكون إنسه وجنه أن يجعله يخلف وعده أو وعيده.

ولذلك عندما حكم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على أبى لهب أنه من أهل النار، فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ١ - ٥] ألم يكن من الممكن أن يأتى أبو لهب ويقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، يقولها حتى لو نفاقًا، وسيصدقها الناس، ويطعن بذلك فى صحة كتاب الله وصدق رسول الله؟ ولكن أبا لهب لم يقلها قط؛ لأن الله قد حكم بعلمه أن أبا لهب لن يقول: لا إله إلا الله، وأنه لن يأتى إله آخر غيره يجعله يقولها، فإذا ما آمنا يقينًا أن لا إله إلا الله، فيجب أن نؤمن يقينًا أنه سيجمعنا يوم القيامة، فيقول الحق: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء: ٨٧] .

*** ما الذى يريد الحق أن يعلمه الناس حين يؤكد حتمية جمعهم يوم القيامة؟**

ـ حتى يثيب المحسن على إحسانه ويجزى المسىء على إساءته، لذلك فالعاقل لا يترك انفلات نفسه من منهج الله إلا بملاحظة العقاب بمخالفة الله، وإلا فلو انفلت بدون تقدير الجزاء

فهو أحمق، ولذلك فالمسرفون على أنفسهم لا يستحضرون الجزاء على المعصية، وإلا فإنهم لن يفعلوها، لهذا تجد أن كل واحد مجرم مقدر السلامة، والقاتل مقدر السلامة، ولو أخذ فى نفسه أنه سيعدم لن يفعلها.

لذلك فإن قضية جمع الناس يوم القيامة ضرورة.. لماذا؟ لأن يوم القيامة هو آخر مظهر من مظاهر دنيا الناس الذى يوفى الله فيه كل واحد جزاءه، وإلا لو لم يكن هناك يوم القيامة لكان الذين أفسدوا وأشبعوا شهواتهم وفعلوا ما شاء لهم أن يفعلوه بعيدًا عن منهج الله هم الذين فازوا وكسبوا، أما الذين التزموا بمنهج الله ومتطلباته فيكونون قد أخذوا «مقلب» وأخذوا «بمبة».

لذلك فالمنطق يقول ما دام هناك ناس ظلموا أو اعتدوا، هناك أيضًا ناس مُعتدًى عليهم، إذن فلابد من حساب، وكيف يأتى الحساب إلا إذا كانت الحياة ستنتهى؟

ودليل ذلك من الجاحدين أنفسهم، فلنسر وراء منطقهم لنقنعهم بمنطقهم.

نقول أنتم تريدون مجتمعًا غير متدين، وهذا موجود وفيه قوانين تحمى حركة المجتمع، ومن يخالف يعاقبوه، ولكن إذا كان العقاب يمنع المجاهرة بالجريمة فما هو حال من استتر وفعل

الجريمة؟ إذن يبقى الشاطر هو الذى «يتدارى»، فأنتم يا ملحدون عملتم تقنينات جعلتكم تحرسون من تراه عيونكم، ومن استتر أليس فى حاجة إلى شىء آخر لتكشفوه وتعاقبوه وهو الذى نصب عليكم.. فما قولكم؟

إنهم يقفون حائرين، إذن عندما نقول لهم نحن نكمل تفكيركم: إن عميتم عن قضاء الأرض لا تعمون على قضاء السماء. يجب أن تشكرونا؛ لأننا أكملنا نقصًا فى تقنين البشر لحماية البشر من الكيد بالجريمة والستر بالمخالفة، فنصل فى النهاية إلى ضرورة وجود منهج الله والإيمان به والاعتقاد أنه لا إله إلا الله وأن يوم القيامة لا ريب فيه.

* * *

*** ما هى متطلبات الإيمان الحقيقى؟**

- يريد الحق أن يجعل قضية الإيمان قضية كلية لا أبعاض لها، فلا يمكن أن تؤمن بالله وتترك الإيمان برسوله أو بكتبه أو برسله أو باليوم الآخر، ولا يمكن أن تأخذ تكليفًا كالصوم وتنكر الزكاة أو الصلاة؛ لأن مقتضى إيمانك كلى لا جزئى، فليس الإيمان بالله وحده يكفى لأن تكون مؤمنًا، لأن مقتضى إيمانك بالله يقتضى رسولاً يعرفك أن هذا الذى خلق الكون وسخره لخدمتك اسمه «الله»؛ لأنك من أين تعرف أنه الله؟ فقد طرأت على هذا الكون المنظم «كإنسان» كان لابد عليه أن يلتفت لفتة ليعلم القوة التى سبقت على هذا الوجود الذى طرأ هو فيه على هذا الكل المتكامل، والبشر ذاتهم يرجعون كل صنعة إلى صانعها ويسلسلون كل شيء إلى أصله، وكل المخترعات موصولة ببعضها البعض.

ومن ينظر إلى هذا المصباح الذى يضىء وينطفئ يجد له تاريخًا ومخترعًا هو «إديسون»، أو لم يفكر أحد فى هذه الشمس

التى لا تنطفئ أبدًا فتنتقل من نصف الكرة الشمالى إلى نصفها الجنوبى دون أن تحترق مثل مصباح صنعه البشر؟!

وتأمل أن شمس الله إذا أشرقت أطفأ كل البشر مصابيحهم مؤمنهم وكافرهم؛ لأن شمس الله قد طلعت، ولينظر كل إنسان لهذا الكون نظرة بعيدة عن الدين، فترى الناس تختلف مقاديرها باختلاف مراكزها وقوتها، فهذا له «حصيرة» يجلس عليها، وآخر له كرسى من خشب، وثالث له كرسى من جلد وعاج، حتى فى وسائل الإضاءة واحد عنده مصباح وآخر عنده لمبة «جاز» وآخر عنده «كلوب». ولما اكتشفوا الكهرباء أصبح واحد عنده مصباح وآخر عنده مصباح «نيون» وثالث عنده «نجفة»، وهكذا فى صنعة البشر يختلف الناس وفق أقدارهم وإمكانياتهم.

ولكن جميع البشر أمام رب البشر سواء فى الاستمتاع بخيره ونعمه، فالكل يستمتع بنور الشمس وحرارتها، والكل يستنشق الهواء فيحيا، والكل يرتوى بالمياه التى خلقها الله، ولكن العجيب أن البشر تركوا المنعم واهب هذا الخير وعبدوا النعمة، فمثلاً ترى قومًا يعبدون الشمس؛ لأنهم وجدوها أقوى ظاهرة أمامهم، فعبدوها. وما هى العبادة؟

العبادة هى طاعة عابد لمعبود، وماذا طلبت الشمس من عابديها؟ وماذا أعدت لمن عبدها أو لمن يعبدها؟ لا شىء، إذن

فإله بلا منهج لا قيمة له، لذلك فالإيمان بالله لا ينفصل عن الذى يقوم بالتبليغ عن الله وهو الرسول.

ولكن لماذا لا يبلغنا الله مباشرة؟ ذلك لأن قدرتنا البشرية لا تحتمل التلقى عن الله مباشرة. وسيدنا موسى - عليه السلام - نفسه لما طلب من الله أن ينظر إليه قال: ﴿ **رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فحكم الله أنه لن يراه؛ لعجز قدرة موسى عن احتمال النظر إلى الله، وأخبره أنه سيراه إن استقر الجبل فى مكانه بعد أن يتجلى عليه الحق بأنواره.

ولكن الجبل رغم قدرته وقوة احتماله لم يستطع رؤية الحق ـ سبحانه ـ فاندك وانهار من نور الله، فخر موسى صعقًا. وأقرب من هذا فإن الشمس، وهى مخلوقة من مخلوقات الله، هل يستطيع أحد الصبر على النظر إليها فترة طويلة دون أن يصاب بصره؟ لا أحد يقدر، فما بالنا بالخالق سبحانه؟!

لذل فلابد من واسطة بين الله والرسول وهو المَلَكُ جبريل الذى رآه الرسول ﷺ بشكله الحقيقى، فلم يحتمل رؤيته إلا بعد أن تشكل له فى صورة بشرية؛ ليبلغ إليه وحى الله ومنهجه إلى البشر.

ومن خلال هذا المنهج وما به من أوامر ونواهٍ يثبت لنا أن

هناك إلهًا هو الله، أخبرنا عنه رسل الله على مر العصور حينما بعث الله لكل جماعة رسولاً يعالج الداءات فى البيئات المختلفة، ولكن الله يعلم تمام العلم أن علم البشر سوف يأتى بالاختراعات التى تجعل داءات العالم كله واحدة، بحيث ما يحدث فى أمريكا يحدث فى مصر، وتنتقل العادات بسيئاتها إلى كل بلد، فأصبح العالم كله داءاته مشتركة.

لذلك كان لابد أن يكون رسول آخر الزمان وهو محمد ﷺ جامعًا مانعًا؛ لأن العالم لم يعد منعزلاً وداءاته واحدة وأدواؤه كذلك واحدة؛ لذلك كان منهج الإسلام الذى أتى به محمدﷺ هو عين معجزته بعكس الرسل الذين سبقوه.

ونحن نؤمن بهم جميعًا كجزء من إيماننا الكامل، فكان المنهج الذى أتى به موسى هو التوراة، ومعجزته «العصا» يشق بها البحر أو يلقيها، فتصبح ثعبانًا، أو يضرب بها الحجر، فتنفجر منه عيون يشرب منها قومه. وكان منهج عيسى الإنجيل، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله. وهذه المعجزات لم نشهدها، ولكن أخبرنا بها الله، فنؤمن بها.

أما رسول ﷺ فلأنه آخر الرسل إلى البشر فكان لابد وأن يكون منهجه هو معجزته.. يشاهدها الناس جميعًا حتى قيام الساعة.

منهج الله تعالى

*** كيف نجد القرآن الكريم منهجًا وكتاب معجزة؟**

ـ إننا نجد للقرآن عطاء لكل جيل يختلف عن عطائه السابق، وإلا لو أفرغ عطاءه الإعجازى فى قرن واحد، لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء، وبذلك يكون قد جمد.

والقرآن متجدد لا يجمد أبدًا؛ لأن الله جعل فيه عطاء لا ينفد لكل جيل، ومعجزة القرآن هى فى أنه يعطى كل عقل على قدر حجمه وفهمه من عصر إلى عصر، فمثلاً عندما يقول الحق: ﴿**رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾ [المزمل: ٩] فإن العقل فى زمن سابق لا يرى إلا مشرقًا واحدًا وفى آية أخرى يقول الحق: ﴿**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ** ﴿١٧﴾﴾ [الرحمن: ١٧] فناسبت هذه الآية عصرًا عرف فيه الإنسان أن الكرة الأرضية نصفان، فبينما تشرق الشمس فى النصف الشمالى تغرب فى النصف الجنوبى، وبينما تشرق فى النصف الجنوبى تغرب فى النصف الشمالى، فيكون بذلك هناك مشرقان ومغربان. وفى آية ثالثة يقول الحق: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**﴾ [المعارج: ٤٠] فنرى

صدق هذه الآية فى عصرنا الحديث الذى تقدم فيه علم الفلك، حيث تبين أنه لا يوجد مشرق واحد ومغرب واحد لكل دولة فى العالم، وإنما هى مشارق ومغارب ،حيث تجد فى كل جزء من الثانية الواحدة مشرقًا تشرق فيه الشمس على مدينة وتغيب عن مدينة أخرى، فهناك ملايين المشارق والمغارب لكل بقعة من الأرض تختلف من يوم إلى يوم ومن فصل إلى فصل؛ بدليل أننا نرى أن الأذان للصلاة يختلف من بلد إلى آخر، وكذلك الإفطار فى رمضان والإمساك له مواعيد تختلف من قطر إلى آخر وفق غروب الشمس وشروقها المختلف من مكان لآخر.

وبذلك تثبت الآيات الكونية صدق الآيات القرآنية، ولا يمكن أن يأتى تعارض بينهما أبدًا؛ لأن خالق الكون هو منزل القرآن الذى تجد حتى الحرف الواحد فيه معجزة، فعندما يقول الحق: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ [العنكبوت: ٢٠]. وقد كشف لنا العلم عن الدقة القرآنية فى حرف واحد؛ لأن الإنسان لا يسير «على» الأرض، وإنما يسير «فى» الأرض التي سطحها تحت أقدامه وغلافها الجوى فوق رأسه، فهو يسير فى الأرض لا عليها، إذن فهو كلام رب.

وإذا كان إعجاز القرآن فى أنه لا يتصادم مع العلم كحقيقة قائمة، فإن للقرآن إعجازه الآخر الذى لا يصطدم مع الحاجات

الاجتماعية للبشر فى كل عصر، فما أنزله الله من أحكام شريعته التى عارضها الملحدون والمستشرقون بالأمس يسلمون بها اليوم عندما وجدوا وقائع الحياة تلجئهم إلى أن يعودوا إلى ما قاله الحق - تبارك وتعالى - فى قرآنه، لا عودة إلى الحق لأنه الحق، ولكن عودة من ألجأته الحاجة فلم يجد بديلاً عنها، فمثلاً عابوا على الإسلام الطلاق، ولكنهم اكتشفوا أن تحريم الطلاق عندهم يجعل الرجال يخونون زوجاتهم ويعيشون مع غيرهن فى الحرام، فكثرت الانحرافات والأمراض، فأباحوا الطلاق، فماذا يعنى هذا؟

هذا يعنى أن منهج الإسلام يظهر على الدين كله كما قال الحق: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ [الفتح: ٢٨] . وليس معنى كما فسرها البعض أن كل الناس سيكونون مسلمين، ولكن معناها أن ما شرعه الله وابتعد عنه البشر بقوانينهم سوف يعودون إليه مضطرين بالظروف التى أثبتت لهم حمق أنفسهم؛ لأنه من غير المقصود أن بشرًا يشرع لبشر؛ لأن الأهواء حتمًا سوف تتدخل، ولكن الحق لا هوى له، فهو خالقك أيها الإنسان، ومن خلقك هو أدرى بأمراضك، وهو كذلك أدرى بعلاج تلك الأمراض؛ لأن صاحب الصنعة هو الذى يضع لها قوانين صيانتها، فلا يمكن مثلاً أن ترى

«طبيبًا» يقوم بعمل «الجزار»، فلكل صنعته ولكل اختصاصه، فكيف يحاول البشر أن يشرعوا لأنفسهم بقوانين تعالج أمراضهم وانحرافاتهم وهم بشر ناقصون؟! لأنهم لم يخلقوا أنفسهم ليشرعوا لأنفسهم، ومن هنا نجد كثرة تغييرهم لكل ما يشرعون من قوانين، والله الحق يدعونا إلى الأخذ بمنهجه، وهو لا يريد من البشر جزاء، ولا شكورًا، إن آمنوا به وأخذوا بمنهجه وطبقوه، مما يزيدهم هدى يصلح أحوالهم، ولن يزيد هذا فى ملكه شيئًا، فلا شىء من طاعة يعود على الله بنفع وكذلك لا شىء من معصية أو كفر يعود على الله بضرر.

فكل طاعة عائدة لنا لخير دنيانا وآخرتنا، وكل معصية تعود علينا خسرانًا فى الدنيا والآخرة، ولكن الحق ـ سبحانه ـ يحب لنا الخير ويريد لنا السلامة بالطاعة.

* * *



الفصل الثالث

الحلال والحرام



(المسلم يجب أن يكون قدوة في سلوكه ما دام قد أصبح مقرونًا بدين الإسلام، وقد قال ﷺ: «كـل مسـلم علي ثغرة من ثغرات دين الله»، والثغرة هي الفجـوة التي في القيم يدخـل منها خصوم الإسـلام لهدم الإسـلام).

الشيخ الشعراوي



كيف ارتبط أمر الله بافعل ولا تفعل بمسألة الحلال والحرام؟

ـ أحل الله أشياء وحرم أشياء أخرى؛ لأنه ـ سبحانه ـ الخالق الذى يجب أن نأخذ منه ما يُبقى لنا الحياة، وهو ما نفعله لأنفسنا حين نصنع آلة توفر علينا مجهود الحركة، فنصنع لها الطاقة اللازمة لتقوم بعملها، بحيث لا يستطيع المستعمل تغيير وقود تلك الآلة بوقود آخر، وإلا فإنها لن تؤدى وظيفتها.

وكذلك الخالق ـ سبحانه ـ حدد لنا ما يعيننا على الحركة فى الحياة بما أحل لنا من الطيبات، بحيث لا نتعداها إلى ما حرم الله، فلا نحلل ما حرم، ولا نحرم ما أحل، وإلا كنا معتدين، فيقول الحق: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** (٨٧) ﴾ [المائدة: ٨٧].

فالحق هو الذى يأمرنا، ولم يزعم أحد غير الله أنه خلقنا، ولذا يجب أن نستمد حركة حياتنا من توجيهات الحق ومنهجه؛ لأنه الذى أخبرنا أنه خالقنا، ولم ينازعه أحد فى ذلك، وقد ترك

لنا الحق أشياء لم يأت فيها بحكم يحللها أو يحرمها، ولنا أن نفعلها أو لا نفعلها، وحدد لنا أشياء حرمها وأشياء حللها، فإن تجاوزنا الحلال إلى الحرام أو أدخلنا الحرام فى منطقة الحلال، نكون بذلك معتدين على منهج الحق ومتخذين لأنفسنا سلطة ليست لنا، فنحن لم نخلق أنفسنا لنضع ما يصلح لها، فاتركوا الآلة الإنسانية للحق يعطيها طاقتها ووقود بقائها فى الحياة؛ لأنه الذى خلقكم من عدم وأمدكم من عُدم وأعطاكم مقومات حياتكم، فلا تخالفوا أمره وتجعلوا من أنفسكم أوصياء على منهج الله، تحللون وتحرمون بأهوائكم، ذلك كما يدعى بعض الفاسقين أن فى الخمر علاجًا لبعض الأمراض إذا ما وصفها طبيب مسلم مؤتمن، فهل يجعل الله فيما حرم علاجًا وشفاء؟ ولو كان فيها علاج قبل أن ينهانا الحق عن الاقتراب منها، فإنه ينزعه منها بعد أن نهانا عنها؛ لأن الحق لا يجعل فيما حرم علاجًا أو دواء. ومن قال بغير ذلك فقد تجاوز الحد، مثل بعض الصحابة الذين حرموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله، حينما سمعوا أن من النصارى من يأخذ نفسه بالرهبنة والزهد، فأخذوا على أنفسهم أن يكونوا مثلهم فى تحريم طيبات ما أحل الله، وأن يلبسوا المسوح، ويسيحوا فى الأرض، ويقوموا الليل فلا يناموا، ويعتزلوا النساء، ويصوموا الدهر. فلما سمع الرسول ﷺ بذلك قال: «أنا أصوم

وأفطر، وأتزوج النساء، وأقوم الليل وأنام، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

ونقول لهؤلاء: إذا كنتم تفعلون مثل الرهبان أتصلون؟ إنكم تصلون، والصلاة ألا تحتاج إلى حركة، والحركة ألا تحتاج إلى طاقة وستر العورة؟ فمن أين تأكلون وتشربون؟ ومن أين تلبسون؟ إن الطعام والشراب واللباس، حتى يأتى لكم يحتاج إلى حركة ناس كثيرين، وحركة واسعة لا تشعرون بها إلا حين تريدون الثوب أو الطعام والشراب، فمن أراد الرهبنة فلا ينتفع بحركة المتحرك، فما دمت قد اعتزلت الحياة فلا تستفد بمن لم يعتزل الحياة.

لذا كان على ولى الأمر إذا أنشأ صناعة يحتاجها المجتمع ولم يقم بها أحد، فعليه أن يلزم بها المجتمع جبرًا، وإذا قام بها البعض سقط عن الآخرين، فلا تحرموا حلالاً أحله الله لخيركم وخير المجتمع؛ لأنكم إن فعلتم ذلك أخذتم صفة المشرع وهو الله، واعتديتم على حقه فى التحليل والتحريم.

وإذا كان الحق قد حلل أشياء، فلماذا حرم أشياء أخرى؟ إن ما أحله الله هو رزق مباشر لنا، وما حرمه يجب ألا ننظر إليه من زاوية الرزق المباشر، بل كوسيلة لرزق مباشر. فالثعبان تُستخدم سمومه لعلاج بعض الأمراض، والخنزير مهمته أن يأكل

القاذورات ليقضى؛ مع أكلها على الميكروبات التى تضر بالإنسان، فلا تقل بعد هذا لماذا خلق الله ما حرم؟ إنه خلقه لمهمة تريد أنت أن تجعل منها مهمة مباشرة، بينما خلقها الحق ليجعل لها مهمة غير مباشرة؛ حتى ينتظم الوجود كله.

ولو نظرنا إلى الغاية نجد أن كل حيوان له مهمته مع غيره من الحيوانات؛ لتؤدى لك الصلاح فيما يصلح لك، فلم يخلق الله شيئًا عبثًا قط.

فنأكل من رزق الله الحلال الطيب، والرزق هو ما ينتفع به: تأكله أو تشربه أو تلبسه أو تتعلمه وتستفيد به كالصفات الأخلاقية، مثل الحلم والشجاعة وغيرهما من الصفات التى تعتبر رزقًا، وإن لم تكن تؤكل أو تشرب أو تلبس. ولكن هل كل رزق حلال يؤكل كله؟ إن هناك نوعين من الرزق: رزق يؤكل، ولو تركت بعضه لا ينتفع به مثل «الدقيق»، ولكن أيضًا لا تأكله كله بل تدع بعضه للمحتاج الذى لا يقدر على الحركة، وهناك رزق آخر يؤكل ويصلح لإيجاد مثله كالقمح مثلاً، ثمرته تزرع لتنتج قمحًا جديدًا، وهذا يعنى أن تأكل من مثل هذا الرزق إلا بعضًا منه تحتفظ به؛ ليكون امتدادًا للرزق. وفى سورة يوسف بيان لهذه القضية فى رؤيا الملك التى فسرها يوسف، فيقول الحق: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ**

سُنْبُلات خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ [يوسف: ٤٣].

وطلب الملك ممن حوله تفسيرها فقال: ﴿ **يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ** ﴾ [يوسف: ٤٣] ، فماذا كان ردهم؟ ﴿ **قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ** ﴾ [يوسف: ٤٤]. وهذا رد فيه تناقض فكيف يفتون أنها أضغاث أحلام، ثم يقولون لا نعرف التفسير؟ وجيء بيوسف ففسر الرؤيا بأن سبع سنوات رزق سيعقبهن سبع سنوات عجاف، ولذلك نصحهم كما ذكر القرآن ﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)** ﴾ [يوسف: ٤٧]. أى كلوا بعضه واتركوا بعضه؛ لاستبقاء النوع وللأكل منه فى أيام الجدب. وجاءت نصيحة يوسف بحفظ القمح فى سنبله، ليتبين حديثًا فى عصرنا أن أرقى أنواع الحفظ للقمح أو للذرة هو استبقاء الذرة فى غلافها واستبقاء القمح فى سنبله. إذن كانت نصيحة يوسف أن يستبقوا مما يزرعونه قليلاً والباقى يأكلوه، إذن فالمأكول ضائع، والمستثنى موجود ومحفوظ فى سنبله لزراعته فيما بعد، وهذا يعلمنا أن نفعل ذلك فى كل مزروعاتنا؛ لأنه ماذا سيكون الحال لو أكلنا مثلاً البطيخ و«قزقزنا» اللب؟ لن يكون هناك بطيخ نأكله بعد ذلك، وإنما نأكل بعضه، وندع بعضه

لنزرعه فيما بعد، وإذا كان لديك لحم فلا تأكله، بل دع بعضه لجيرانك المحتاجين، إذن فما تستبقيه إما لنفسك أو لنفع من يحتاج.

ومن الذى أمر بذلك؟ إنه الله.. آمنا به ووجب أن نطيعه ما دمنا قد قبلنا الإيمان به. يقول الحق: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ [المائدة: ٨٨] فلا غضاضة أن تتقى من آمنت به، ومتى تكون الغضاضة؟ ذلك عندما يكون مطلوبًا منك أن تؤمن بمن هو مساوٍ لك، وهنا يأتى النفور.

لذلك عندما تحدى موسى بعصاه قوم فرعون، ظنوا فى البداية أن القضية هى «موسى». ولكن عندما أيقنوا أن عصا موسى قد صارت «حية» حقيقية، بينما حبالهم وعصيهم يخيل إلى الناس من سحرهم أنها تسعى، وهى فى نظرهم عصى وحبال، توقفوا عن التحدى؛ لأنهم وجدوا أن القضية ليست قضية موسى وحده، وإنما كان معه ربه، فلذلك ما داموا قد وجدوا من لا يساويهم قالوا هذه مسألة أخرى، فآمنوا، ولم يعلنوا إيمانهم بموسى؛ لأنه مساوٍ لهم حتى لو كان رسولاً، ولكنهم أعلنوا قائلين إنهم آمنوا برب موسى؛ لأنه هو الحقيقة الكبرى التى لا يستطيعون تحديها أو الوقوف أمامها، فقالوا سمعًا وطاعة.

وإذا نظرنا أيضًا إلى قصة «بلقيس» ملكة «سبأ» مع نبى الله سليمان، وجدنا أنه عندما بعث إليها سليمان قائلاً: ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣١] فكان أن جمعت الملكة رجال جيشها تطلب منهم المشورة فى هذا الإنذار ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُون ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْك فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [النمل: ٣٢ - ٣٣] لقد قالوا لها إنهم عسكريون لا شأن لهم بالسياسة، والقرار السياسى من اختصاص الملكة. إذن فرجال القوة لا يقولون رأيًا، وإنما الرأى للسياسة، فلما أدارت بلقيس المسائل قررت إجراء اختبار لمعرفة من سيكون سليمان، هل هو ملك طالب دنيا، أم شىء آخر؟ فأرسلت إليه هدية، فلما وصلته قال: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦] فقد عرفت إذن أن سليمان صاحب منهج سماوى لا مطلب دنيوى، فوجدت أن الخضوع فى هذه الحالة ليس ذلة ما دام من الأدنى للأعلى، فآمنت وقالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وقالت لقومها إنها لم تذلهم؛ لأنها آمنت بالأعلى وهو الله، فلا غضاضة فى ذلك، لهذا حينما يقول الحق: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي

أنتُم بهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٨] يريد أن يبين لك أنك لم تؤمن إلا لمن يستحق الإيمان.

لذلك من يرتد عن الإيمان ويكفر يكون جزاؤه القتل. لماذا؟ لأنه أتيح له الاختيار فى البداية أن يؤمن أو لا يؤمن، لذلك حينما يأتى الحكم بالقتل لمن كفر بعد الإيمان، فإن ذلك الحكم ليعلم من البداية كل من يؤمن أن الدين أثمن من حياته، فلا يدخل فيه إلا وهو معتقد تمام الاعتقاد ومؤمن تمام الإيمان بأن يأخذ كل أمر الله بثقة، فلا يجعل افعل مكان لا تفعل، أو لا تفعل مكان افعل ولا يسأل عن الحكمة وراء كل حكم؛ لأننا استأمنا الله على أنفسنا حين آمنا به.

* * *

تعدد الزوجات

*** ما تعليقك على قضية تعدد الزوجات التى يأخذها أعداء الإسلام مدخلاً للطعن فيه؟**

ـ يطالب الحق المؤمنين به ألا يجعلوا منهج الله لهم فى حركة حياتهم «عضين»، بمعنى ألا تأخذ حكمًا إن كان لصالحك وتترك حكمًا إن كان عليك، وإنما يجب أن تأخذ كل حكم جملة؛ لأن أى انحراف فى فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب الأمة كلها.

فكل حق لك واجب عند غيرك، وإذا أردت أن تأخذ حقك فأدِّ واجبك. ونضرب لذلك مثلاً قرآنيا فى تعدد الزوجات فيقول الحق: ﴿**فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ [النساء: ٣]. وكلام الحق الحكيم يوضح للذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد أن يأخذوا حكم الله أيضًا فى العدل، وإلا أعطوا خصوم الإسلام حججًا قوية فى إبدال ما شرع الله بحكم وإهمال حكم آخر، والعدل المطلوب بين الزوجات إذا أخذت بالتعدد هو

القسمة السوية فى كل شىء: فى المكان بحيث تأخذ كل واحدة من المتعددات مكانًا مساويًا للأخرى فى متاح المكان، والقسمة السوية فى الزمان بحيث إذا قضيت ساعة عند واحدة فللأخرى مثلها، والقسمة السوية فيما يخص الرجل من متاع نفسه، فلا يجعل شيئًا له قيمة عند واحدة وشيئًا آخر لا قيمة له عند الأخرى، وإذا لبست ملابس صوفية هنا فلا ترتدِ ملابس من نوع آخر هناك، وإذا لبست نعلاً أو حذاء فليكن عند الزوجة مثلما عند الأخرى لونًا وشكلاً وصنعًا واحدًا؛ لتساوى بين زوجاتك فى كل شىء. وذلك حتى لا تتدلل واحدة أو تعاير الأخرى.

وهذه العدالة المطلوبة هى فيما يدخل فى اختيارك؛ لأن ما لا يدخل فى اختيارك لست مكلفًا به، مثل مطلوبات «القلب»، لا يطلب الله منك أن تعدل فيما يتعلق به؛ لأنه ليست هناك قدرة منك على قلبك أن يهوى هذه مثل هذه أو أن يحب تلك الزوجة بقدر مساوٍ للأخرى، والرسول ﷺ كان يقول فى مسألة القلب بالنسبة إلى زوجاته: «اللهم هذا عدلى فيما أملك، فاغفر لى يا رب فيما لا أملك».

فأنت ترتاح نفسيا عند واحدة، ولا ترتاح عند الأخرى، فهذه مسألة لا تملكها، أما الذى تملكه فهو الأمر الظاهر السوية فى الكل فيما لك إرادة أن تفعله من عدل، وإذا كان هذا فى

النساء المتعددات، فما بالنا بأولادهن؟! فلابد أيضًا من العدالة بين الأبناء جميعًا من هذه الزوجة وتلك؛ لأن الذى يفسد الأمور هو أخذ الحكم بالتعدد، بينما الأولاد مشردون، فيأخذ ذلك علينا أعداء الإسلام؛ لأن المسلم يجب أن يكون قدوة فى سلوكه مادام قد أصبح محسوبًا على الإسلام.

وإذا كان الرسول وهو القدوة الحسنة لأمته قد توسع فى العدل بين زوجاته، فإنه لم يقف فى العدل عند قدرته، وإنما كان يتجاوز ذلك إلى ما فوق طاقته، فإذا مرض كان يطلب أن يحمل ليطاف به على نسائه؛ لأن هذا يشيع العدالة بينهن.

ومع ذلك حين ألزمت نفسك بواحدة، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة للنفس الواحدة؟ لا، فالعدالة كما هى مطلوبة فى التعدد مطلوبة أيضًا للزوجة الواحدة، وقد جاءت امرأة تشكو لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أن زوجها لا يقربها، فقال عمر لأحد أصحابه وكان جالسًا: أفتها. فقال: نفترض أن زوجها متزوج من ثلاث، فكل ثلاث ليالٍ يعطيها الليلة الرابعة. فسر عمر من هذا الصحابى؛ لأنه عرف كيف يفتى. ولا تظنوا العدالة فى مثل القلب كما أوضحنا، وإنما فى الأمور الاختيارية، ولكن السطحيين يقولون: إن الله يطلب منكم العدل وفى نفس الوقت يحكم بأنكم لن تعدلوا مستدلين على ذلك بقول الحق: ﴿ **وَلَن**

تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ [النساء: ١٢٩].

ولكن المعنى الذى يجب أن نفهمه مما هو مقصود بكلام الله هذا هو أنكم لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء فيما لا تملكون من الهوى والميل للحب ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل.

والذين يطلقون الحكم بوجود تناقض بين آيات القرآن الكريم غير واعين ويريدون أن يدلسوا على منهج الله.

والتعدد الذى أباحه الله يحسب للإسلام لا عليه، فإذا كان الرجل مزاجيا لا تشبعه امرأته، فهل من الأفضل أن يطلقها ويسرحها ليتزوج أخرى، أم يطلق غرائزه فى أعراض الناس؟ إن التعدد أفضل؛ حتى لا يظلم الرجل زوجته وهو غير ميال إليها، فيطلب منه الله أن يظل معها ويتزوج بأخرى أفضل من أن يتجه إلى محرمات الناس وأعراضهم.

وقد لجأت بعض الدول الأوربية إلى إباحة التعدد، ليس لأن الإسلام نادى به،ولكن لأن الظروف ألجأتهم لإنهاء مسألة الخليلات والتلصص على أعراض الناس.

والقرآن حين أباح التعدد قيده بالعدالة، فيقول: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء: ٣]، وهذا شىء يجب أن نتنبه

إليه، وهو أن التعدد لم يؤمر به كفرض وإنما أبيح، فمن تضايقه هذه المسألة فلا يعدد، والمباح هو رخصة تستعملها أو لا تستعملها.

ومبحث آخر لإباحة التعدد، هو أنه من الممكن أن يكون هناك فائض من النساء وقلة من الرجال.. فما الذى يحدث؟ إما أن هذا الفائض من النساء يكبتن غرائزهن كبتًا أو ينطلقن مع كل متزوج وتفسد المسائل، وإما أن يسمح للرجل بأن يتزوج أكثر من واحدة. إذن فالتعدد هنا جعله الله مندوحة لامتصاص الفائض ومنع الانحرافات كما أباح التزوج بملك اليمين فى قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣].

ولكن الآن لم يعد ملك اليمين موجودًا، فليس هناك أسرى من نساء العدو نتيجة انتصارات أو فتوحات، فقد خضع المسلمون واقتطعت دول من دولهم واجترأ عليهم الكفار. أما قديمًا فقد كانت هناك انتصارات إسلامية وفتوحات ونساء أسرى، فكان مباحًا للسيد أن يستمتع بما ملكت يمينه.

وقد عاب أعداء الإسلام هذه المسألة أيضًا على الإسلام، ولكنهم لم يفهموا أن الإسلام قد جاء ليصفى «الرق» لا ليوسعه، فبعد أن كان لتصفية «الرق» سبب واحد وهو إرادة السيد، وسع

الإسلام مصارف تصفية الرق: أى ذنب يقول اعتق رقبة، حنث فى اليمين، يقول اعتق رقبة، كل حاجة اعتق رقبة.. ذلك لأن الإسلام يريد تصفية الرق. ومع ذلك يأخذ الحمقى على الإسلام مسألة الرقيق، فنقول لهم أيها الحمقى لقد جاء الإسلام ليصفى الرق لا ليؤكده حينما جعل السيد ينكح ما ملكت يمينه، فإن هذا كما يقول الحق: ﴿**ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا**﴾ [النساء: ٣] أى أقرب ألا تجوروا وتظلموا حين اكتفيتم بواحدة، وذلك أقرب ألا تجوروا وتظلموا حين نكحتم ما ملكت يمينكم؛ حتى لا تتركوهن عرضة للكبت وظلم غرائزهن. وهكذا يثبت الواقع والحقائق الجارية فى كل زمان صدق الإسلام وعلاجه لكل القضايا. وعلى كل مسلم أن يأخذ أحكام الله، فيطبقها كما أرادها الله؛ حتى لايترك سبيلاً لأعداء الإسلام أن يطعنوا فى الإسلام.

* * *

الباروكة والمساحيق

*** ما الحكم فى تقليد الرجال للنساء والعكس؟**

- ليس من شك فى أن المنتفع بالضلالة يريد الاحتفاظ بالضلالة مستمرة، فالمتاجرون بالمخدرات ومروجو السوق السوداء، والمشتغلون بفن الإثارة، والمحترفون للشعوذة، هؤلاء وغيرهم ممن هم على شاكلتهم من مصلحتهم أن يستمر الفساد فى الأرض؛ لأنهم يعيشون عليه وينتفعون به، فإذا ما امتدت يد لتكشف الضلالة وتزيح الفساد، هاج هؤلاء وماجوا.

فعندما ندعو إلى تطبيق منهج الله فى الأرض يقولون إن تطبيق المنهج يعنى قطع يد السارق. وهذا مما يؤدى إلى قطع أيدى الناس وتعطل حركة العمل فى المجتمع، وكأنهم يكلمون من لا عقل له، وهم أول من يعرف أن حدود الله قد أحاطها الله بضوابط لا يمكن تنفيذها إلا بها؛ لأن الفطرة السليمة هى الأمانة، والفطرة السليمة هى الحلال، بدليل أن الذى يصنع شيئًا مخالفًا للفطرة يحاول أن يتلصص ويتستر، فالسارق يحاول أن يتخفى عن الأعين؛ حتى لا تراه، والناظر إلى غير محارمه

يتكلف وينظر وهو يتلفت يمينًا وشمالاً ليرى إن كان أحد يراه أم لا، ففطرة الله هى الأصل فى الإنسان، يعنى لو وجد إنسان فى بيئة لا تكذب فإنه لا يعرف الكذب ولن يعرفه، ومن وجد فى بيئة لا تعرف السرقة فإنه سينشأ لا يعرف ماذا تكون السرقة؛ لأنها فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله. وأى تغيير طارئ يفعله الإنسان على الفطرة يصبح تغييرًا لفطرة الله الصافية السليمة، وهو القائل: ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤] فهو الخالق لكل شىء بقدر وميزان، لم يخلق شيئًا قط عبثًا كيفما اتفق، ولكنه يخلق بحكمة واقتدار. وكل الخلق مخلوق لله، ومعنى الخلق إيجاد من عدم، إلا أن المخلوق مخلوق لغاية متقدمة على الخلق، فلا يخلق الله شيئًا ثم يبحث عن الغاية، وإنما خلق الله خلقه عن قصد لغاية محددة موجودة فى ذهن الخالق، فإذا ما استعملنا المخلوق لغير الغاية فإننا نكون قد غيرنا خلق الله. وانظر إلى الرجل يتخلى عن مقومات رجولته فيلبس مثل ملابس النساء ويطيل شعره مثلهن. إنه بذلك يخرج عن دائرة رجولته. وانظر إلى المرأة تقص شعرها وتقلد الرجال مسترجلة، وفى ذلك تغيير لخلق الله. وكل من يغير خلق الله ملعون على لسان رسول الله ﷺ المبلغ عن الله، فلعنَ الرجل الذى يلبس ملابس المرأة، والمرأة التى تلبس ملابس الرجال،

فيتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وهؤلاء ملعونون من الله ورسوله؛ لأن أولئك هم المخنثون من الرجال والمسترجلات من النساء الذين يغيرون خلق الله.

وعندما تجد رجلاً قصيرًا ـ هكذا خلقه الله ـ تراه ينتعل حذاءً ذا كعب عالٍ؛ كى يصبح أكثر طولاً. وبدلاً من أن يحترم قدر الله فيه، يحاول أن يغير خلق الله فيه، فيصبح أضحوكة. وهذا الذى فقد بصره يحاول أن يخفى ذلك بنظارة سوداء! أأنت تضحك بذلك على نفسك أم على الناس أم على الله؟ وهذا كله من إضلال الشيطان للناس.

يقول الحق سبحانه: ﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)**﴾ [النساء: ١١٧ - ١١٩] والشيطان رغم أنه عدو ظاهر العداوة، فإنه يأمر الناس ويتبعونه حتى فى تغيير خلق الله، فتجد المرأة تنزع حاجبيها وترسمهما بالقلم، مع أنه قد يكون سر جمالها فى حاجبيها الكثيفين، ومن تعمل لنفسها عملية تجميل، ومن تلجأ لجراحة التجميل؛ لأن

أنفها قصير فتطيله، أو طويل فتقصره، مع أن ما خلقه الله عليه قد يكون هو سر جاذبيتها وجمالها. ويقولون إن الملكة المصرية «كليوباترا» كان أنفها هو سر جمالها، ولو كان قصيراً بعض الشيء لتغير وجه التاريخ. وتجد امرأة أخرى تريد أن تجعل «خدها» مثل الوردة، فتقوم «بتلطيخه» أحمر. فمن تخدع؟! ألا يعرف الناس أنها تتجمل مغيِّرة خلق الله؟ حتى إذا كبرت فى السن تكون المساحيق قد سدت مسام جلدها وغطت منافذه، فيصبح وجهها كئيبًا. كذلك الأظافر لونها الذى خلقه الله عليه معمول لحكمة، فتأتى النساء وتلون الأظافر بألوان وأشكال، فتحرمها من أن تتنسم الهواء. وهل يظن إنسان أن هذا لون أظافرها؟! واللائى يضعن «الوشم» لو يعلم الله أن هذا الوشم الذى تعمله سيعطيها جمالاً لخلقها به، ولكنهن يغيرن خلق الله.

ومن العجب أن أول من تستغفله المرأة بما تفعله من تغيير خلقتها هو الذى يعجب بها، لذلك كل من يغير خلقة الله ملعون مطرود من رحمة الله؛ لأنك على من تضحك ومن تخدع!

يقول الحق: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ۝٩﴾ [البقرة: ٩] والنساء بوجه خاص عليهن ألا يخدعن غيرهن من الرجال بإظهار خلقة غير التى خلقها الله لهن، فقد جاءت امرأة تسأل النبىﷺ قائلة له: «إن

ابنتى أصابتها الحصبة فتمرق شعرها. (انتشر وتساقط) وإنى زوَّجتها أفأصل فيه؟» (أجعل لها شعرًا مصطنعًا يعنى ما نسميه الآن باروكة) فقال لها ﷺ: «لعن الله الواصلة (التى تصل شعرها أو شعر غيرها بشعر آخر) والموصولة (التى يوصل شعرها) والمستوصلة». (التى تسأل من يفعل لها ذلك وهو «الكوافير» المعروف الآن).

كذلك يدخل فى زمرة المغيرين لخلق الله الملعونين من الله ورسوله «النامصة»،وهى التى تأخذ من شعر حاجب غيرها وترققه ليصير حسنًا، «والمتنمصة»، التى تأمر من يفعل بها ذلك، و «المتفلجات للحسن المغيرات لخلق الله»، و«المتفلجة» أى التى تبرد من أسنانها؛ ليتباعد بعضها عن بعض قليلاً، فتعمل فرقًا بين الأسنان. وهذا ما يفعله بعض الرجال أيضًا!

كل هذه الأنواع وما شابهها، من يفعلها أو يأتها متبع للشيطان؛ لأنه لم يعجبه خلق الله فيغيره، ولو علم الناس أن ما خلقهم الله عليه إنما لحكمة يعلمها وقد نجهلها، لشكروا الله على ما خلقهم عليه، وقد نرى رجلاً لا تعجبه امرأة تعجب رجلاً آخر غيره، فالله قد وزع الأمزجة ووزع الجمال ووزع النعم على خلقه. ما من إنسان به نقص فى شىء إلا عوضه الله عنه بشىء آخر كنبوغ أو موهبة،فلنحترم خلق الله فى أنفسنا ولا يحاول أحد

أن يأخذ مهمة الثانى، فلا يجوز أن تتحول المرأة رجلاً والرجل امرأة، فلكلٍّ مهمته التى خلقه الله لها، فلا يجب أن تغير المرأة فى شكلها وخلقتها لفتًا للأنظار واستدرارًا للإعجاب، فيطمع الذى فى قلبه مرض.

وعلى المرأة أن تفهم أن الدين لا يعاندها، فأنا أضمن استقامتك، ولكنى لا أضمن كل من رآك فى الشارع أن يكون كذلك. أنت قد تكونين ملتزمة وليس منك أى شىء، إنما هل الذى يراك كذلك؟

ومن الشرف والكرامة لك أن كرمك الله وجعلك سيدة بيت تقومين على توفير الرعاية والتربية لأبناء الأمة. فلو وفرت وقت العمل لإعطاء أبنائك وبناتك دروسًا بدلاً من الدروس الخصوصية، وتعلمت الخياطة؛ لأن «المغزل» فى يد المرأة «كالسيف» فى يد المجاهد، فهذا أجدى لك وأنفع من إهانة نفسك فى زحام المواصلات وتحمل مشاق العمل الذى يتحمله الرجال بصعوبة، ولتبقين سكنًا لزوجك كما أراد الله، وراعية لأكرم خلق الله على الله وهو الإنسان.

ولكنهم اأادوا للمرأة غير ذلك، بخلوا عليها بعرق حياتهم، فأحبوا أن تشقى وتعرق، وشجعوها على أن تخرج متبرجة، ووجدت من يشجعها على ذلك من بيوت الأزياء والموضة،

وجعلوها ألعوبة «وفرجة» ودمية للإثارة والإغراء، وشجعوها باسم المساواة على أن تتخلى عن بيتها وأسرتها، وإذا قلنا التزمى بيتك أشرف لك، ورحنا نقنعها بما فى الكتاب والسنة هاجوا وماجوا؛ لأنهم لن يجدوا من يستهلك عطورهم وأزياءهم وألوانهم وموضاتهم، فتمسحوا فى التقدمية، واتهموا من ينادى بما أمر الله بالرجعية.

* * *

قضية عمل المرأة

*** زدنا يا فضيلة الشيخ فى مفهومكم لقضية عمل المرأة من عدمه؟**

ـ كرم الله المرأة كما لم يكرم جنسًا آخر؛ لأنها الوعاء الحاضن لأكرم خلق الله على الله وهو النفس البشرية.. الإنسان الذى اختاره الله ليكون خليفته فى الأرض وإعمار الكون وإذا كانت مهمة الرجل مع الأجناس الدنيا فى الحياة: مع الجماد يعمل، ومع النبات يزرع، ومع الحيوان يربيه، فقد جعل الله مجال المرأة مع الإنسان، فهل هناك تكريم للمرأة أكثر من أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعلها الحاضنة لأكرم مخلوقاته؟

انظر لطفولات بقية الأجناس، تجد الطفولة فى الحيوان عدة أيام، وتمتد إلى شهر، والطفولة فى النبات تصل إلى سبع سنين. أما طفولة الإنسان فممتدة إلى أربع عشرة سنة، وهى فترة طويلة. لماذا؟ لأن مهمته جليلة، فيأخذ خلال هذه الفترة نضج ما حوله ليكون سلوكياته، وهو خلال تلك الفترة يكون فى حضن أمه، بينما الأب يكدح فى الحياة ويأتى للزوجة ويسكن عندها.

ولذلك حكم القاضى للزوجة عندما احتكم الزوج والزوجة أمام القاضى بعد انفصالهما حول من هو أحق بحضانة الطفل. قالت الأم: لقد حمله خفا ـ فى ظهره لا يدرى به ـ وحملته ثقلا فى بطنى، ووضعه شهوة، ووضعته كرها على كره. لذلك كرم الله المرأة، وأوصى بها، كما أوصى رسوله بأكثر مما يوصى بالرجل. وكانت توصية الله ورسوله بالمرأة كأم بأكثر مما يوصى بالرجل كأب، وليس ذلك انتقاصًا من قيمة الأب فى حياة الأبناء، ولكن لأن الأبناء حينما يكبرون ويشبون لا يرون إلا فضل الآباء عليهم يكدحون ويجيئون لهم بكل متطلبات الحياة، بينما دور المرأة الأم غير منظور؛ لأن فضلها لم يشعر به الأبناء؛ لأنهم كانوا أطفالاً لم يدركوا كيف حملت الأم بهم وكيف عانت فى وضعهم وكيف سهرت الليالى من أجلهم، كل هذا لا يدركه الابن؛ لأنه يكون صغيرًا، ولكنه يدرك فقط فضل الأب، ولذلك فإن الله أراد أن ينبه الأبناء إلى عِظَم فضل أمهاتهم عليهم، فبث فى آيات القرآن الكريم الدعوة للبر بها والإحسان إليها، فكرمها كأم؛ لأن هذه هى وظيفتها الكبرى، وكرمها كامرأة، وجعل لها سورة خاصة بها، هى سورة «النساء».

ولم يجعل سورة للرجال، وجعل الأحكام الخاصة بالنساء متضمنة فى كثير من سور القرآن مثل «الأحزاب» و «المائدة» و

«المجادلة» و «الطلاق» و«التحريم» وغيرها، وجعل قدوة الاصطفاء فى الرسالات والتكليفات «امرأة عمران» التى نذرت لله ما فى بطنها، فكانت «مريم» خير نساء العالمين، فهذا التكريم الإلهى من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ للمرأة ليس له شبيه ولا نظير فى أى مجتمع آخر غير المجتمع الإسلامى.

فإذا جاء من يقول بأن المرأة المسلمة ينقصها حق من حقوقها، وخروجها إلى العمل هو استكمال لهذا الحق الناقص وذروة التكريم لها، فإننا نقول له: ليس خروج المرأة للعمل تكريمًا لها، بل إهانة وإخراج عن مهمتها الحقيقية فى رعاية الجنس البشرى الذى كرمه الله وأكرم المرأة باحتضانه وتربيته، ولكن ليس معنى هذا أن المرأة يحرم عليها أن تعمل، فلها أن تعمل مع أبيها أو زوجها أو مع أولادها أو مع محارمها، دون أن تتعرض للاختلاط بغير هؤلاء المحارم؛ حتى لا تفسد الأمور. وإلا قولوا لى ما علاقة العمل بخروج المرأة كاشفة كل مفاتنها؟ هل هذا مما يتطلبه العمل؟ وما علاقة العلم بخروج بناتنا بالزينة والبهرجة التى يخرجن بها إلى الجامعة؟! لقد أصبح خروج المرأة فتنة لا علاقة لها بذات العمل ولا بذات العلم. وليست المرأة مكلفة بأن تنفق على نفسها أو تنفق على غيرها، وإنما الذى يتكفل بها وينفق عليها هو الرجل، تلك مهمته فى الحياة أن يشقى ويتحرك ليعود

ويجد الراحة والسكن والهدوء عند امرأته. ولكن إذا تخلى المجتمع عن المرأة وأصبح الأزواج يحثونها على الخروج للعمل ويقفون منها موقفًا سيئًا مستكثرين عليها أن يتكفلوا بها، أو ينفقوا عليها، فإن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد حدد الشروط التى بسببها تخرج المرأة إلى العمل كما وضحها رب العزة فى قصة موسى التى جاءت فى سورة «القصص»، حيث يقول الحق: ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا** ﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

وتأمل هنا موقف المرأتين أمام جمع الناس الذين يسقون، وقفتا ﴿ **دُونِهِمُ** ﴾ أى بعيدًا عنهم، و ﴿ **تَذُودَانِ** ﴾ أى تبعدان ماشيتهما وتمنعانها من الاقتراب من الماء؛ حتى لا تحتكا ببقية الناس، فسألهما موسى: ﴿ **مَا خَطْبُكُمَا** ﴾ ما حكايتكما؟ قالتا: لا نسقى حتى يصدر الرعاء.

لقد خرجت المرأتان للعمل، ولكن وراء خروجهما سبب قوى هو ﴿ **وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ فليس هناك من يتكفلون بهما، فخرجتا مضطرتين إلى العمل، ولم تتخذا من الخروج إلى العمل

مبررًا للاختلاط بالرجال، فوقفتا بعيدًا حتى ينتهوا من السقيا. ثم انظر إلى مهمة المجتمع الإسلامى حينما يرى امرأة خرجت إلى العمل لابد أن يعرف الضرورة التى ألجأت هذه المرأة للخروج إلى العمل، ثم يقضى لها حاجتها، وهذا ما فعله موسى عليه السلام.

ثم نبه القرآن الكريم على المرأة أن تنتهز الفرصة إذا جاءتها لتمتنع عن الخروج ولا تدع الفرصة تفوتها ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦] المرأة نفسها طلبت استئجار رجل وهو «موسى»؛ كى لا تخرج، ولكى تعود إلى طبيعتها كأنثى. وهنا فهم الأب المعنى والمغزى، وأخذ الأمور بحزم الأب الذى يجب أن يتصف به كل أب مسلم، ولم يدع غريبًا يدخل بيته ويخرج منه مع وجود بنات له، وهذا سيجعل الضرر أكثر مما لو خرجت الفتاتان إلى العمل، فقرر الأب أن يزوج هذا الغريب وهو «موسى» إحدى ابنتيه، وليس فى هذا خروج عن الطبيعة البشرية، فمن عادة الأب أن يخطب لابنه، ولكن القرآن فى قصة موسى لا يمانع أبدًا فى أن يخطب الأب لابنته من يثق برجولته وأمانته ودينه وخلقه، ويتكفل بابنته، وتسمو رجولته عن أن يترك امرأته تعمل فى الخارج لكى تعينه على العيش.

*** نحن نعرف أن النساء فى عهد الرسول ﷺ كان لهن نشاط، فمنهن من كانت تفتى ومنهن من كانت تداوى الجرحى، مما يدل على أن المرأة كانت تخرج لتؤدى أعمالاً خارج بيتها.**

ـ تذهب لتداوى الجرحى لا أن ترفه عن الجنود، فمن فى وقت الحرب الدائرة بالسيوف بين الأعداء، وهناك المقتول والمجروح، من الذى يعاكس و«يبصبص» فى هذا الوقت؟ لقد كانت المرأة فى عهد الرسول للمداواة. أما الآن فهى للترفيه.

وفى عهد الرسول ﷺ كانت «أسماء» فى معركة، وجاء واحد من الكفار يصول ويجول، فخافت أسماء منه أن يعتدى على حريم المسلمين، فقالت لحسان بن ثابت: انزل فاقتل هذا الرجل. فقال لها: يا هذه، أنا لست من أهل قتال. فأخذت السيف منه ونزلت، فقتلت الفارس، ثم رجعت، وقالت لحسان: اذهب يا حسان، فاسلبه، ولولا أنه رجل لسلبته. حتى بعد قتله تخشى الاقتراب من الرجل.

* * *

*** ما حكم التمثيل بالنسبة إلى المرأة، خاصة وأنه نشر على لسانك أنك قلت لإحدي الممثلات «توكلى على الله»؟**

ـ لقد قلت إن عمل المرأة التى تحتاج فيه حرمة، فكيف أقول

لامرأة تمثل توكلي على الله؟!

يا أخي، أنا لا أعرف لماذا يتجنى الناس عليَّ ويقولون عني ما لم أقله.

مسألة التمثيل سبق أن قلت رأيي فيها بصراحة، قلت: امرأة متزوجة في الحقيقة ولها أولاد، ثم تأتي في الفيلم ويعقد قرانها على شخص آخر وتنام في أحضانه.. ما هذا؟ هذا مخالف للإسلام.

وقلت في هذا الموضوع وأقول: كل ما يحل واقعًا يحل تمثيلاً، وما لا يحل واقعًا لا يحل تمثيلاً، ولذلك فلا يجوز مثلاً أن أزوج امرأة متزوجة.

*** ما الذي يصح في التمثيل من وجهة نظر فضيلتكم؟**

ـ من يسدي لابنه النصيحة، أو يوجه جماعة إلى توجيه طيب، أو لص سرق وجاءت العدالة واقتصت منه مهما استطاع إخفاء الجريمة... الخ.

*** إذن معنى ذلك أنكم تؤيدون موضوع التمثيل إذا كان الغرض منه تقديم صورة مفيدة للإنسان؟**

ـ لابد من ذلك..

وعاد الشيخ مرة أخرى إلى مسألة عمل المرأة فى الفن فقال:
ارجع إلى الفنانين الذين هداهم الله، واسألهم عن حلاوة الإيمان، فلو كان للفن المزعوم حلاوة أكثر من حلاوة الإيمان، لعادوا إلى الفن.

إذن المسألة ليست فى تبرير أعمال ترضى بها النفس وتغضب بها الله. لا.. المسألة أكثر من ذلك.

*** كان أبرز مثال لمن زاركم من الفنانين الفنانة شادية وقد أقلعت عن الغناء.. فهل الغناء أيضًا حرام؟**

- اسمع يا أخى.. كل شىء فى حد ذاته حسنه حسن، إلا إذا خرج حسنه فصار قبيحًا، حينئذ يصبح حرامًا. وكذلك الغناء الذى يخرج الجسم عن وقاره، وتحرك به الشهوات والغرائز يصبح حرامًا، وما ينطبق على الغناء ينطبق على الموسيقى، وينطبق على الرقص. القاعدة هى «كل شىء حسنه حسن وقبيحه قبيح».

* * *

بل هـي قسـمة عـادلة

*** ما حكم من يجورون فى القسمة بين الإخوة ولا يرضون بقسمة الله فى المواريث؟**

ـ انظر إلى نموذجين فى المجتمع: أخوين أحدهما لا يرغب فى المدرسة. وإذا أيقظوه ليذهب إليها قام بصعوبة متلكئًا. وإذا خرج لا يذهب إلى المدرسة و«يتسكع»، ويلعب هنا وهناك ويذهب للسينما، أو يجلس على القهوة، فى حين أخوه يصحو مبكرًا ويذهب إلى المدرسة ويجدُّ فى دروسه ويتعب ويسهر.

وظاهر الأمر أن كلا الأخوين يحب نفسه ويرجو الراحة لها، كل بطريقته، ولكن الأخ الأول يحب نفسه حبا متدنيًا، ويريحها راحة مؤقتة وزائلة؛ لأنه كم سيرتاح؟ ١٤ أو ١٥ سنة مدة الدراسة التى لم يفلح فيها، ولكنه فى النهاية يصير خائبًا وخاسرًا، ويصبح صعلوكًا من صعاليك المجتمع.

أما الأخ الآخر الذى أتعب نفسه فى المدرسة وذاكر، فظاهر الأمر أنه يتعب نفسه، ولكنه تعب مؤقت وزائل؛ لأنه يرجو لنفسه بعد ذلك راحة مستمرة؛ ويصبح نابغًا له مكانته بين الناس

فى المجتمع.

فإياك والحكم بظواهر الأشياء وأخذ ما ليس لك بحق؛ لأنه قد يعطيك مكسبًا عاجلاً، ولكنه يورثك شرا أجلاً، والرسولﷺ قد حذرنا من هذا، فيقول لكل من يريدون الاختصام إليه: «إنما أنا بشر. وإنكم تختصمون إلىَّ. ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته (يعنى لسانه بليغ وبيانه مقنع يعمى المسائل فأنا أحكم بظاهر الحجة) فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذه؛ إنما أقطع له قطعة من النار».

ولذلك حينما برر بعض الصحابة قتلهم لرجل من الكفار نطق بالشهادتين، بحجة أنه قالها نفاقًا لينقذ نفسه من القتل؛ تبرأ الرسول ﷺ منهم وقال لهم: «هل شققتم عن قلبه»؟ ذلك لأن السرائر لله. ونحن كبشر نحكم بالظاهر، وحتى يكون الحكم صحيحًا فالحق - سبحانه وتعالى - ينهانا عن ظاهرة «النفاق» فى الكون؛ لأن النفاق فوائده موقوتة بعمر كل إنسان وعمر كل إنسان مهما طال فهو قصير، وبعدها يشقى؛ لأنك إن كنت كتمت أو أخفيت حقا أو أخذت ما ليس لك بحق، فإن الله الذى يعلم السرائر يظهر ما تكتمه وما تخفيه، ويورثك شقاء بما أخذت من غير حقك. ولذلك ننبه بعض الناس الذين لا يرضون قسمة الله فى المواريث، فيعطون الذكور أو بعض أبنائهم أكثر من البعض

الآخر أو يحرمون بعضهم، ولو كان الذكر أو الابن يعلم قسمة الله فى الأشياء لقال لوالده: «ارحمنى ولا تعطنى فوق ما قسم الله لى».

والحق يقول: ﴿ **آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا** ﴾ [النساء: ١١] يعنى يا ناس تنبهوا إلى أن آباءكم لا ينفعونكم إذا انحازوا إليكم وغيروا قسمة اللَّه لكم، ويا آباء لا تظنوا أنكم بمحاباتكم لبعض أبنائكم على البعض الآخر تنفعونهم، بل إنكم تضرونهم، وتنبهوا إلى أن من تحبونه يجب ألا تظلموا له الناس؛ لأن هذا يغرس بذور الحقد والكراهية، ويعمل على تقطيع الأرحام، وعلى من قسم له أبوه قسمة فى الميراث ظالمة تجاوز فيها حكم اللَّه، عليه أن يأتى برجولة إيمانية ويقول لإخوته وأقاربه والناس: «أنا أرضى بقسمة رب أبى، ولا أرضى بقسمة أبى»، ويترك ما زاد عن حقه لمن يستحقونه، رضاء بقسمة اللَّه.

*** كيف يمكن الرد على ذوى الفهم الضيق الذين يرون فى قضية المواريث الخاصة بالذكر والأنثى قسمة غير متوازنة؟**

ـ يقول الحق: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ**﴾ [النساء: ١١].

فالحق يوصينا بأولادنا فكيف ذلك؟ سبحان اللَّه! كأننا عند ربنا أحب إليه من عند آبائنا. وانظروا إلى الدقة القرآنية ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي...**﴾ مع أن مادة الوصية تأتى بالباء مثل قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ**﴾ [الأنعام: ١٥١] ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**﴾ [الشورى: ١٣] وقال: ﴿**وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ**﴾ [لقمان: ١٤] كلها بالباء. ولكن عندما جاء بالوصية فى الأولاد قال: ﴿**يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ**﴾ [النساء: ١١] فجاء بالفاء، فكأن الوصية مضمونة فى الأولاد، وما هو مضمون الوصية؟ مضمونها للذكر مثل حظ الأنثيين، ولكن لماذا لم يقل الحق «للأنثيين مثل الذكر»، وقال: «الأنثيين» للذكر مثل حظ «الأنثيين»؟ ذلك لأن الحق أراد أن يكون المكيال المنسوب إليه الرجل هو الأنثى؛ لأنه لو قال: «وللأنثيين مثل حظ الرجل» فإن المقياس سيكون هو الرجل، ولكن الحق جعل المقياس للمرأة، غير أن الذين يحبون

أن ينفخوا فى المرأة يقولون لها هذا هو أول ظلم لك فطالبى بالمساواة.

ولننظر عندما يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، هل يكون هذا ظلمًا للمرأة أم لا؟ فالذكر مطلوب له زوجة ينفق هو عليها، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها، لو كانت منفردة يكفيها نصيبها من بيت أبيها، ولو تزوجت يبقى لها نصيبها مما يتركه أبوها بعد وفاته إضافة لإنفاق زوجها عليها، وما رتبه لها القرآن من نصيب فى إرث زوجها بعد وفاته، فهل فى هذا جور أو محاباة للرجل؟ لا. لأن الحق أولاً جعل للمرأة المكيال الذى يرد له الأمر، وجعل لها ذكرًا ينفق عليها سواء فى بيت أبيها أو بيت زوجها، فما تأخذ من نصف حظ الذكر خالص لها، وكان يجب أن يقال: لماذا حابى اللَّه المرأة؟ ذلك لأنها عرضة لئلاً تتزوج فتجد ما تنفقه، وإن تزوجت يصبح لها فضل غنى، فإن المرأة غير مظلومة كما يروج السطحيون ويغررون بها فى غير حق.

* * *

أبناء شحاذين صاروا أغنياء

*** ما رأى فضيلتكم فيمن يتركون لأبنائهم ما يضمن معيشتهم بعد مماتهم وآخرين يتركون أبناءهم عند حد الكفاف؟**

- إياكم أبدًا أن يحتاط أب لأبنائه بعد مماته بمكسب جمعه من حرام، فهناك أبناء تركهم آباؤهم «شحاتين» فصاروا أغنياء، واقرءوا معى هذه القصة:

عندما تولى «أبو جعفر المنصور» مُلك الدولة العباسية، جاء الناس يهنئونه. ولما حضر «مقاتل بن سليمان» وكان رجلاً صالحًا، قال «أبو جعفر المنصور» لمن حوله: لقد جاء ليعكر علينا صفو يومنا، وسأبدؤه قبل أن يبدأنا؛ لتبقى لنا الحجة ونتتهى منه.

وقال «أبو جعفر المنصور»: «عظنا يا مقاتل» فقال مقاتل: «أأعظك بما رأيت أم بما سمعت»؟

وأضاف: «يا أمير المؤمنين، مات الأمير عمر بن عبد العزيز وقد ترك أحد عشر ولدًا وتسعة عشر دينارًا، كفن منها بخمسة، وأشترى له قبر بأربعة، ثم وزع الباقى على ورثته.

ومات الأمير هشام بن عبد الملك، وكان نصيب إحدى زوجاته الأربع ثمانين ألف دينار، غير الضياع والقصور. والله - يا أمير المؤمنين - لقد رأيت بعينى هاتين فى يوم واحد ولدًا من ولد عمر بن عبد العزيز يحمل على مائة فرس فى سبيل الله، ورأيت ولدًا من ولد هشام بن عبد الملك يسأل فى الطريق».

فلماذا جعل الله مثل هذا المثل بين الناس؟ ذلك ليتأدبوا، ويتركوا الأمر لله فى أحكامه فيما يورث، وفي غيرها من الأحكام؛ لأن الخبيث يذهب ولو أعجبك كثرة الخبيث. ولو تدبرنا أحكام الله بعقولنا بعيدًا عن أهوائنا لتوصلنا إلى أنها الحكم الحق، وإذا كانت «الحبة» المزروعة فى الأرض تعطى سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، فكم يعطيك خالقها إذا أقبلت عليه مخلصًا مستقيمًا وكل أعمالك خير، وتركت أولادك فقراء، فإن الله يغنيهم من بعدك بفضل ما تركته من رصيد الخير والصلاح فى حياتك.

أما إن أقبلت على الله بشرورك وآثامك وارتكاب المحرمات والكسب من غير الطريق المشروع، فإنك مهما تركت أبناءك أغنياء فسوف يفقرهم الله من بعدك؛ لأن رصيدك من الشرور أزال البركة مما تركته، فمحاه ولو كان كثيرًا. وهذا لتعلموا أن الآباء لا يضمنون لأبنائهم الستر بعدهم. والرسول ﷺ قد حذرنا فقال:

«شركم من ترك عياله بخير وأقبل على اللّه بشر». فعلى الأبناء الذين اصطلوا بشرور آبائهم، فقسموا قسمة غير التى قسمها اللّه أن يراجعوا المسألة؛ لأن آباءهم لم يفعلوا لهم ذلك إلا بحكم أحمق، فليجازوا آباءهم بالعودة إلى حكم اللّه وتطهير أموالهم بالصدقة والزكاة؛ ليرحموا آباءهم ويرفعوا عنهم العذاب.

* * *

العبد الصالح فى قصة البقرة والقرية اللئيمة

*** ما هو أفضل ميراث يتركه الآباء لأبنائهم؟**

- قال عمرو بن العاص لمعاوية بن أبى سفيان: «ماذا بقى لك من حظ الدنيا؟

فقال: «أما الطعام فقد مللت أطيبه، وأما اللباس فقد سئمت ألينه، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف».

هكذا كان مراد معاوية من دنياه التى دانت له بالملك والفخامة، ثم سأل معاوية:

«وأنت يا عمرو، ماذا بقى لك من حظ الدنيا؟»

فقال عمرو: «عين فرارة فى أرض فوارة تدر على فى حياتى ولولدى بعد مماتى».

فعمرو يريد أرضًا مثمرة بها عين ماء تدر عليه الرزق فى

حياته ولذريته من بعده.

وقد كان مع معاوية وعمرو خادم لهما، فنظر معاوية إلى الخادم وكان اسمه «وردان» وأراد مداعبته فقال له: «يا وردان، ماذا بقى لك من متع الدنيا؟» فانظروا ماذا كان رد الخادم؟ لقد قال: «بقى لى من متع الدنيا - يا أمير المؤمنين - صنيعة معروف أضعها فى أعناق قوم كرام لا يؤدونها إلىَّ طوال حياتى حتى تكون لعقبى فى عقبهم». فقد أراد هذا الخادم أن يترك فى دنياه معروفًا وعملاً صالحًا وتقوى بين الناس تبقى لذريته من بعده رصيدًا إيمانيا عند اللَّه يرزق به أولاده ولا يعانون فى حياتهم.

وفى القرآن الكريم أكثر من دليل على أن من يتقى اللَّه فى حياته يوقف اللَّه له تقواه من بعده لأبنائه، تحفظ عليهم رزقهم وحياتهم وإن كانوا ضعافًا، فيقول الحق: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ**﴾ [النساء: ٩] فضمنوا أن اللَّه يرزق أولادهم فيمن يتقى اللَّه فى ذريتهم الضعيفة، وانظروا فى قصص القرآن الكريم تجدوا مصداق هذا.

ففى قصة البقرة عندما قُتل واحد من بنى إسرائيل لم يستَدل على قاتله، فطلب موسى من قومه على لسان ربه أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل ببعض أجزائها فيحيا بإذن اللَّه ويدلهم على من

قتله، ولكن بنى إسرائيل تشددوا فشدد اللّه عليهم، فراحوا يسألون موسى أسئلة لا لزوم لها عن ماهية البقرة ولونها وصفاتها، وبعد كل هذا قالوا لموسى: ﴿**الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [البقرة: ٧١] كأن موسى لم يجئ لهم بالحق، وموسى يقول لهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾ [البقرة: ٦٧] . فموسى لم يقل من ذاته ولكنه يبلغهم أوامر ربه.

وراح بنو إسرائيل يبحثون عن البقرة بما أخبرهم به موسى عن ربه من أوصافها، حتى عثروا عليها بعد جهد وعناء، وكان يكفيهم أن يذبحوا أية بقرة، ولكن نتيجة للجاجتهم وتعنتهم وتشددهم شدد اللّه عليهم. وهذا التشديد كان لمصلحة ابن رجل صالح مات واستودع اللّه بقرة لابنه، فكانت هذه البقرة تهيم على وجهها . . تأكل من أرض اللّه، وتمنع أى إنسان من أن يمسك بها؛ لأن اللّه مانعها، استجابة من اللّه لدعوة الرجل الصالح أن يبقى اللّه البقرة أمانة عنده حتى يكبر ابنه ويطلبها، فيجدها بعد أن دلته أمه على مكانها، حتى جاء بنو إسرائيل يريدون شراء هذه البقرة، وكلما عرضوا ثمنًا لها كان ابن الرجل الصالح فى كل مرة يتركهم ليستشير أمه. نعم أليس ابنًا صالحًا من رجل صالح؟

وظل بنو إسرائيل يساومونه على الثمن حتى أعيتهم الحيل؛ لأنه متمسك بمشاورة أمه وطاعتها التى كانت تطلب منه فى كل مرة زيادة ثمن البقرة حتى اشتروها بملء جلدها ذهبًا، فكان هذا رزقًا مضمونًا من اللَّه لهذا الابن الذى اتقى والده الصالح ربه فيه.

وانظروا إلى قصة أخرى من القصص الحق يرويها القرآن الكريم، وهى قصة العبد الصالح مع موسى الذى ظن أنه أعلم أهل الأرض، فأراد اللَّه أن يعطيه درسًا ويعلمه أن من خَلْقِ اللَّه من غير الأنبياء من هو أعلم منه، فدله على «الخضر».. ذلك العبد الصالح الذى قال اللَّه عنه : ﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** ﴾ [الكهف: ٦٥].

فصحبه موسى ليتعلم منه. وكان من المشاهد التى يرويها الحق ـ سبحانه ـ قوله: ﴿ **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا** ﴾ [الكهف: ٧٧]. فهى إذن قرية لئيمة ويقول الحق: ﴿ **فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ** ﴾ [الكهف: ٧٧] فاعترض موسى؛ لأن عنده حفيظة على أهل هذه القرية؛ فقد طلب هو والعبد الصالح طعامًا فلم تعطهم القرية، ولذا فقد أراد موسى ألا يقيم العبد الصالح هذا الجدار الذى يريد

أن ينقض إلا بأجر ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، ولكن غاب عن موسى ما لم يغب عن العبد الصالح، فيقول الحق على لسان العبد الصالح فيما فسره لموسى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

لو أن العبد الصالح ترك الجدار حتى ينهار، ألم يكن أهل هذه القرية سيأخذون الكنز؟ لذلك قال العبد الصالح: إننى أقمت الجدار حتى أخبئ الكنز عن أهل القرية اللئيمة، حتى يكبر اليتيمان ويأخذا كنزهما، إذن فقد عاقب العبد الصالح أهل القرية العقاب الذى يستحقونه نظير لؤمهم، وكافأ الغلامين اليتيمين. ولماذا يكافئهما؟ لقد بيَّن الحيثية فى قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] اتقى اللَّه فيما فى يده، فبعث اللَّه جنودًا لم يرها الأب لضمان رزق ولديه.

* * *

أموال اليتامى

*** كيف نظر الإسلام إلى اليتيم والذين يأكلون أمواله؟**

ـ من قضايا القرآن التى اهتم بها العناية باليتيم الذى أوضح الرسول ﷺ أن من يمسح على رأس اليتيم حبا وحنانًا يجعل اللَّه له بكل شعرة مستها يده من شعر رأس اليتيم حسنة، وجعل الحق من يظلم اليتيم ويأكل حقوقه كأنه يأكل نارًا، فيقول الحق: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا** ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠] لأن من يستولى على مال اليتيم ويأكل به فكأنما يضع فى بطنه ما يؤدى به إلى النار يوم القيامة، ويكون لآكله مال اليتيم علامات وسمات، فيخرج دخان من أفواههم.

ولماذا هذا التشديد على حفظ مال اليتيم وإكرامه؟ لأن الحق يريد من خلقه أن يستقبلوا قدر اللَّه فيمن يحبون وفيمن يحتاجون إليهم، فإذا كان صغيرًا ويرى أباه يأتى له بالحلو كله ويراه يموت ثم يأتى المجتمع ليكفله، فقد عوضه اللَّه بآباء إيمانيين متعددين، فيستقبل اليتيم المصيبة برضا، فقد ذهب أبوه ،لكن كل المسلمين

قد أتوه ليكونوا آباء له يتكفلون به وبقضاء مصالحه، فتشيع الرحمة فى المجتمع، ويشيع الحب، ولا يبقى حقد ممن فقد أباه على من لم يفقدوا آباءهم.

* * *

*** كيف تكون صيانة النعمة؟**

إن أصحاب العقول الحقة لا ينشغلون بالنعمة عن المنعم، وإذا ما أخذ إنسان نعمة اللّه التى سبقت وجوده فى الدنيا فغفل عن صاحب النعمة ومانحها وهو اللّه، فإن النعمة لا تعطيه البركة ولا تكون كل حركته تأتى بخير، وإنما يعطيه اللّه الأسباب والمسببات ولا يعطيه الخير؛ لأنه غفل عن المنعم.

ولذلك فمن واجبك أن تقرن كل نعمة بقولك: «ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه»، فكأنما هى مشيئة اللّه وقوته التى ساقت لك النعمة، ولهذا فإن نعمتك إن تذكرت فيها مشيئة اللّه المنعم وقوته لا ترى فيها سوءًا أبدًا؛ لأنك رددتها إلى خالقها فضمنت بذلك صيانتها، وإنك لترى فى سورة الكهف قصة رجلين أحدهما اغتر بالنعمة والآخر تذكر المنعم. ورغم تحذير الرجل المؤمن لصاحبه من المصير الذى سيؤول إليه إذا استمر على كفره وغفلته للمنعم، فإنه لم يلتفت للتحذير وأخذته العزة بالإثم، وتحققت نبوءة الرجل المؤمن لصاحبه الذى كفر بنعمة اللّه، فيقول الحق: ﴿ **وَأُحِيطَ**

بثَمَرِه فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ [الكهف: ٤٢] وراح يندم حيث لا ينفع الندم ﴿ **وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا** ﴾ [الكهف: ٤٢، ٤٣].

وعبرة هذه القصة القرآنية هى ألا يغتر أحد بوجود النعمة، فتنسيه وجود المنعم، ولكن عليك أن ترد النعمة لصاحبها وهو الحق - سبحانه - فيزيدك خيرًا ويزيد نعمتك بركة. وهذا هو معنى قول الحق: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ** ﴾ [إبراهيم: ٧].

وأما إن لم تشكروا فنحن نعطيكم الأسباب، ولكن لا نعطيكم البركة، بل تكون النعمة نقمة وحسرة، ولكنا كمؤمنين علينا أن نكون من هؤلاء الذين ذكرهم اللَّه فى قرآنه فى قوله: ﴿ **الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ** ﴾ [آل عمران: ١٩١].

* * *

لماذا لا تقال كلمة «سبحانك» إلا لله؟

ـ سبحانك لأنك حق وخلقت الأرض والسموات بالحق ووضعت لها قوانينها ونواميسها بالحق، فوجب أن نستقبل هذا الكون المخلوق بحق، بشكر الحق ﴿**رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ**﴾ [آل عمران: ١٩١]. وسبحانك لا تقال إلا للَّه ـ سبحانه وتعالى ـ عند ذكر أى نعمة منسوبة إلى اللَّه، لم يقلها «سُبْحَانَكَ» بشر لبشر، ولن يقولها بشر لبشر حتى قيام الساعة، وإنما تقال للحق الأعلى فى كل نعمة وكل أمر خارق أو معجز، تقول: «سبحان اللَّه». وهذه هى عظمة الحق، فرغم أن الحق جعل الإنسان مختارًا فإنه ليس اختيارًا مطلقًا، فأنت مختار أن تتمرد على اللَّه، ولكن هناك أشياء أنت خاضع فيها لإرادة الحق ولا تستطيع أن تتمرد عليه فيها، فمثلاً اسم «اللَّه» هل تجرأ أحد وأطلقه على أحد من أبنائه؟ لم يجرؤ أى كافر فى أى عصر، ولن يجرؤ كافر فى العصور المقبلة إلى قيام الساعة أن يطلق اسم «اللَّه» على إنسان؛ لأنه يعرف أن اللَّه حق، مع أنه يعاند ويكابر. ولو لم يعلم أن اللَّه حق لتجرأ على اسمه وأطلقه على ولد من أولاده، ولكن لأنه يعرف أن مصيبة سوف تقع له لم يفعلها.

كذلك كلمة «سبحانك» لم يقلها بشر لبشر «فسبحان فى سبحان» كما قال أحد الصالحين، فإن كلمة «سبحان» تتأملها وتقول فيها «سبحان اللَّه» الذى لم يجعلها لأحد غيره، فسبحانه وتعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولذلك لم يخلق شيئًا باطلاً قط، فحق شكر اللَّه قولاً وعملاً وتأملاً وتفكرًا فى عظمة الخالق. والتفكر والتأمل هما أساس الشكر وعين العبادة. إن رسول اللَّه ﷺ هو الذى قد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما جاء فى قول الحق لرسوله: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢**﴾ [الفتح: ١، ٢].

رغم هذا فإنه ﷺ كان يقوم فى جوف الليل يبكى ويثنى على اللَّه ويحمده ويبكى حتى تبتل الأرض من بكائه، فيجيئه «ابن أم مكتوم» ينبهه إلى أن وقت الصلاة قد حان، فيراه وهو يبكى، فيقول له: «ما يبكيك يا رسول اللَّه؟ ألم يغفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟» فيقول له ﷺ: «ألا أكون عبدًا شكورًا».

وهذا أبو بكر الصديق الذى قال عنه الرسول إنه لو وضع إيمان أمة محمد فى كفة ميزان، ووضع إيمان أبى بكر فى الكفة الأخرى، لرجحت كفة أبى بكر، وأبوبكر فى مكانته ومنزلته تلك

يقول: «واللَّه لو أن إحدى قدمى فى الجنة والأخرى خارجها ما أمنت مكر اللَّه؛ لأنه لا يأمن مكر اللَّه إلا القوم الكافرون». أبو بكر يقول هذا متذكرًا قدرة اللَّه عليه غير مغتر أو راكن إلى شهادة رسول اللَّه له. فما أجدرنا ألا تنسينا الصحة يومًا نمرض فيه، وألا تنسينا النعمة يومًا يصيبنا الفقر فيه؛ وما أجدرنا بالعودة إلى الحق نعيش فى نعمه غير منفصلين عنه سبحانه؛ لأنه المنعم الذى كما أعطى يأخذ وكما منح يمنع، فهو الذى يعز من يشاء. ويذل من يشاء، فلا يظن أحد أنه خارج عن إرادة اللَّه أبدًا.

ولكن قد يسأل سائل: ولماذا يرزق اللَّه الكافر؟ لأن اللَّه خلق الناس جميعًا كافرهم ومؤمنهم، وما دام اللَّه قد استدعى الناس جميعًا إلى الوجود، فهو متكفل برزقهم؛ لأنهم لم يستدعوا أنفسهم، وكون هذا إنسانًا كافرًا فكفره لنفسه، والمؤمن أيضًا إيمانه لنفسه، واللَّه قد خلق الأسباب، ومن يأخذ بها وينفعل معها، تنفعل معه وتعطه، بصرف النظر عن كفره أو إيمانه.

ولذلك حينما قال خليل اللَّه إبراهيم فيما جاء فى قول الحق: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: ١٢٦] نجد أن الحق نبه إبراهيم إلى أنه لا يرزق المؤمن فقط، ولكن أيضًا يقول الحق: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ

﴿الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] فالكافر يستمتع بخيرات اللَّه ونعم الدنيا، ولكنه متاع قليل بالقياس إلى ما أعده اللَّه للمؤمنين به من نعيم الآخرة،في جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كما قال رسول اللَّه ﷺ؛ لأن متعة الدنيا مؤقتة ومتعة الآخرة أبدية، ومتعة الدنيا تكتنفها الآلام ولن تضمن استمرارها. أما متعة الآخرة فبلا آلام، واللَّه يضمن لك استمرارها. وحتى يتحقق ذلك فإن اللَّه يريد أن يعطيك مناعة بالإسلام، إن جاءتك نعمة شكرتها، وإن زالت صبرت على زوالها، وهكذا يعلمك اللَّه استدامة صلتك به.

* * *

الأمن من الخوف

*** كيف يأمن الإنسان من الخوف؟**

يقول الحق سبحانه: ﴿**قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ٣٨] .

فقد استخلف اللَّه الإنسان فى الأرض ليعمرها، منذ أوجد اللَّه آدم فى الأرض، بعد أن أهبطه هو وزوجه إليها محملين بمنهج الهدى الذى من اتبعه وسار عليه عاش فى غير خوف وغير حزن أبدًا، لذلك فإن المسلم الحق هو الذى يسلم وجهه إلى الحق - تبارك وتعالى - مسلمًا إليه كل أموره، فتستقيم كل أموره ومعاملاته، ويصبح منسجمًا مع الكون عبادة وعملاً وحسن استخلاف فى الأرض، فيحبه اللَّه، ويحبه خلق اللَّه، ويوضع له القبول فى الأرض والسماء؛ لأنه أحسن سره وعلانيته مع الخالق والمخلوق، فتراه دائمًا مستقيمًا فى كل تصرفاته ومعاملاته، متبعًا قول رسولنا ﷺ: «إنما الدين المعاملة».

وأساس المعاملة فى الإسلام هو رضا النفوس بما لا يغضب

اللَّه، أى بمالا يحلل حرامًا أو يحرم حلالاً، عند ذلك لا يتملك المسلم خوف ولا حزن أبدًا؛ لأنه يتبع هدى اللَّه ومنهجه. وصدق وعد الحق ـ سبحانه ـ لعباده منذ أن هبط آدم وزوجه إلى الأرض ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

والخوف هو خطأ ترتكبه وتخاف اكتشافه، ولكن الإنسان الذى يعيش مع منهج اللَّه طيعًا لا يخاف؛ لأنه لم يغشَّ ولم يرتشِ ولم يؤذِ أحدًا ولم يسلك سلوكًا يغضب ربه، فلا خوف ولا حزن أيضًا؛ لأن الإنسان يحزن لافتقاد شىء سار، والعبد الذى يعيش مع منهج اللَّه يعيش فى سرور دائم.

* * *

فهرست الكتاب

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث

رقم الإيـــداع:	٩٦/٩٤٨٠
الترقيم الدولى:	977-5215-70-6

طبـع : **آمون**

العنوان : ٤ الفيروز – متفرع من إسماعيل أباظة – لاظوغلى

تليفون : ٣٥٤٤٣٥٦ – ٣٥٤٤٥١٧